أرضى لك !

قصص قصيرة

تأليف
سامى فريد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

الاخراج الفنى والغلاف : ماهر الشمسى

مسافة
بين الحزن والموت

مرج البحرين ..

سحبت أناملها من بين أصابعى . التفتت نحوى .. وقالت : لا تنس .

هززت رأسى . رفعت كفها ملوحة وابتسمت ثم استدارت منصرفة .. مكثت فى مكانى اتابعها . التفتت وحركت أصابعها فى الهواء . رفعت كفى مشيرا ثم انزلتها .

كانت مصابيح الشوارع التى أضيئت الآن تحاول دفع ظلام الليل الموغل . بحثت عنها فى الزحام الذى غاصت فيه . لم أستطع أن أراها .

أسرعت خلفها .

كانت تعبر وسط ارتال السيارات الزاحفة فوق الأسفلت الكالح . تحجبها عنى جموع الناس المندفعة فى كل اتجـاه . ترددت لحظة قبل أن أناديها . استدارت ولوحت فلوحت لها وانصرفت مسرعا أدس نفسى وسط زحام الناس الذين لم أعد أراهم : هل كان اليوم الأحد أم السبت ؟

ألقت الشمس نظرتها الأخيرة على أسطح البيوت وحوائط المبانى وزحـام الشـوارع قبل أن تنصرف فانبثقت الظلمـة وانتشرت تحط على كل الأشياء .. وأوغل فى الحزن قلبى .

كنت أعلم انهم الآن ينتظروننى فوق . فى مكان من قلبى يقبع خوف كالح الوجه حائر ينتفض بين اللحظة واللحظة .

دهست السيجارة تحت حذائى ودرت حول المبنى لائذا بالزحـام ، وقد سيطرت على فكرة الانسحاب ونسـيان الأمر كله . أسرعت مبتعدا فاستكان خوفى .

قلت لنفسى : الآن أستطيع أن أقرر .

فى مياهها أسبح . أشق المـاء بذراعى ولا أصل . أضرب قلب الموج . أغوص فيه وأرتفع لكننى لا أصل أبدا . وأحس قواى تخور . بعيدا تطوحنى موجة عالية لأبدأ من جديد . وأوقن اننى موشك على الغرق فازداد تشبثا بالحياة . وأراها

على البعد شجرة عفية على شاطىء نجـاتى • شامخة هنـاك تقاوم الرياح •

بين ارتعاشات الموج فى عينى أراها ، فأضرب صفحة المـاء وأضرب فأقترب وابتعد ولا أصـل • وتظل الشجرة مكانهـا راسخة تهز فى وجه الريح أغصانها وتنادينى • أسمع النداء • أفتح فمى أحـاول أن أجيب فيمتلىء حلقى بالملح • وأغمض عينى مستسلما للحظـة الموت الداهم • فى عينى صورتها تبتسم وتشير • وفى سمعى صوتها ينادينى : لا تنس • فأقرر العودة •

أخمن أنها تجلس بينهم •

ويخامرنى شك فيمن سيكون منهم حاضرا • وأحـاول أن أتصـور ماذا يقولون الآن • وماذا حكت لهم عنى • وأكاد أراهم خلف الباب • يقف أحدهم مرهفا سمعه لصـوت أقدامى حين تقترب • ويجلس الآخر فاردا ساقيه مسددا نظرته تجـاه الباب • وينحنى الثالث مطلا من النافذة يستعجل مقدمى ويحاول أن يخرجنى من بين زحام الناس •

رفعت الى النافذة وجهى • لم أر أحدا •

كان المبنى الضخم ساكنا ككل يوم ، لم يتغير فيه شىء • كانت اللافتـات نفسـها تحت الشرفات بألوانهـا السـوداء

وخطوطها البيضاء • وظلت أذرع الهوائيات فوق صـواريها الممتدة فى الفراغ ، مائلة تشرف على السقوط ، انتظرت عبور الترام وسيارتى أتوبيس ، وبعض العربات ثم قررت النزول من فوق الرصيف واجتياز الشارع •

ملت مع المبنى أعبر المدخل • وراح العرق البارد يرشح من كل جسمى •

قالت ان قلبينا يلتقيان دائما • واننا قطعنا كل هذه المسافات من أجل لحظة كهذه •

قلت ان اللحظة وحدها لا تكفينى واننى أريد عمرا مديدا يبدأ قبل البداية ولا ينتهى بالنهاية •

وأسـأل :

لمـاذا تنمو حشائش الوساوس تحت أشجار المخاوف ، ولمـاذا كلما قطعنا مسافة انزوعت مكانها مسافة يتفجر المـاء فيها تحت أقدامنا ويستحيل بحرا لتبتعد وأبدأ سـفرى اليها ولا ينتهى •

غاب المصعد هابطا فدخلت فى ظلام الردهة ووقع خطواتى يدق فى الصمت • خلف ضـوء زجاج الباب لمحت أشباحهم تتحرك فى الداخل •

سمعت صرختها وصـوت اللطمة تهوى فوق وجهها ثم

انقطع الصوت فاندفعت أدق الباب بقبضتى فى عنف • انفتح الباب •

كان يقف فى مواجهتى فأزحتــه وانطلقت داخــلا وهو خلفى :

فى مواجهتهم وقفت •

كان وجهها منكفئا فى حجرها وقد رفعت كفها الى خدها • درت أبحث فى عيونهم عمن ســدد اليهــا اللطمــة • وضــع الرجل كفه فوق كتفى فأزحتها بعيدا ووثبت التقط النصــل اللامع الملقى على المــائدة • سحبت مقعدا احتمى وراءه • ورفعت النصل فى وجوههم • أشرت اليها أن تنهض فنهضت • كان غضبى ينتفض عند أطراف أصابعى • تراجعت الى الخلف والسكين فى يدى • تقدموا نحوى ببطء فتراجعت •

افلتت منطلقة من بينهم لتحتمى خلفى • انطلقوا خلفها فسددت النصل نحوهم ورحت أضرب فى الهواء •

من بعيد جاء صوتها واهنــا ممطوطا ، تصرخ فيما كان النصل البارد يغوص داخلى فينساب الدم الساخن فوقه يطفىء لمعانــه •

رفعت عينى فوق أقدامهم • كانت كل المشــاهد تدور وتبهت وتبتعد • انحنت ترفع رأسى نحوهــا • فى عينيها كان

الحزن يغوص بعيدا . على الضـوء الواهن رأيت التمـاع الدموع المنحدرة فوق خديها .

رفعت كفا مرتعشة نحوها . بلل الدمع الساخن أصابعى التى سقطت الى جوارى فأغمضت عينى ورحت أتنفس فى بطء فيما كانت الظلمة الباردة تسحبنى بعيدا .. بعيدا .

القاهرة ١٩٨٩

انتحار الصمت الصاخب !

هـالك من يقترب ..

هـالك من يبتعد ..

هـالك انا فى الحالين !!

....

....

متسربلا بهذيان أشواقى المحمومة ، أتوارى خلف أسمال عجزى ورثاثة قهرى ، منسربا من نفسى ، منسحقا ، أهرب من اللحظة وأمعن فى الغوص عميقا داخلها أوارى فى ظلمات العمق أشـلاء فشلى .. أجمعها وأخفيها بعيدا عن بهر ضـوء كلمة أتحسبها .. تعشى لها عينى ، فأقف مشـلولا .. لا أقوى على العودة ، ولست أجسر على التقدم خطوة .. تميد بى أرضى ، وتنتصب أمامى حيطـان رفضى ، وسـواد الغضب فى العينين

اللتين تضمران لى الآن مرارة الحب المهزوم ، تنتفض جثته مثخنة بجراح الشك تجود بنفسها الأخير وقد راحت تفارقها حرارة الذكريات القديمة ودفء عناق الحياة التى كانت يوما ما بسمة وشمسا وزهورا تنتظر الآن لحظة الأفول .. يزحف عليها الظلام وتغشيها برودة الافتراق .. تنتفض انتفاضة الموت قبل أن تسكت سكوتها الأخير ..

صمتى لا أطيقه .. وفى حلقى تنطفىء الصرخة ، فتمتلىء عيناى دموعا وتغيم أمامى كل الأشياء ..

....

....

لم يكن بابها مغلقا ..

أمام الباب المفتوح وقفت مترددا ..

ناديت ..

جاءنى صوتها :

ـ ادخـل ..

ترددت !

ـ ادخـل ..

دخلت .!

....

قلت لها والخدر يسرح فى كل جسـمى ان أرضها التى حملتنى ملكتنى ، واننى منذ وطئت أرضها امتلكتها ، وأننا قد صرنا كيانا متداخلا مختلطا لا أعرف أين أنا فيه ، أو أين هو منى ..

هل توحدنا ؟ ..

أغمضت عينيها وتنهدت فسرحت أجيل فى سقف الغرفـة بصرى أطارد اجابة لسؤال اشتعلت ناره فى صدرى « من فتح الباب المغلق ؟ » التفت أرشق فى سكون العينين المترقبتين الآن سؤالى .. جفلت الوداعة المسترخية بيننا فتمطت اللحظـات طويلة باردة لا تريد أن تنتهى ..

لم أجسر على البوح ، فابتلعت صمتى مؤثرا ألا أفتح بابا أريده الآن مؤصدا بيننا ..

نهضت أجمع أشيائى على عجل ..

التفتت قبل أن أغيب وراء الباب ..

كانت تولى المرآة الكبيرة ظهرها ..

تقدمت خطوة ومدت ذراعيها ..

كان قلبى مفعما بالحزن ..

ألقيت نظرة سريعة الى كفيها ثم رفعت عينى الى وجهها ..

بدا لى أن عينيها كانتا تريدان أن تقولا شيئا ..

قاومت فى نفسى رغبة جارفة فى الانتظار ..

سحبت الباب خلفى وتوقفت لحظة أتأمل قضبان الحديد المتقاطعة فوق الزجاج المنقوش .. مررت بأصابعى فوقها وتحسست الخدوش الدقيقة فى الخشب ثم انزلت كفى ومضيت أهبط الدرجات المظلمة مبتعدا ومن خلفى راح صوت النحيب يعلو الآن خلف الباب ..

....

....

فى الدهليز المفضى الى الظلمة لا يتكشف نور ..

غام كل شىء وانقطع الرجاء ، ولم يبق سوى وقع خطواتى يتردد فى سكون ليل الشوارع التى تظل تنزف حياتها على امتداد نهار صاخب طويل لتسلم الليل الداخل آخر أنفاسها ..

الأضواء القليلة الساهرة تشير الى بقايا حياة متناثرة حولها تنتظر نهارا يدهمها فتسكت ..

أدور مع الشارع أسلم لبرد الليل وجهى وأغذ السير مبتعدا متوشحا بالظلام أختفى فيه وقد قررت ألا أعود ..

تقلبت فى فراشى وقد سكبت شمس الضحى نورها حولى •• فتحت عينى لأجد كل شىء كما تركته ••

الصورة ما تزال فى اطارها على الحائط تبتسم وعلبة سجائرى فوق المنضدة وزجاج النافذة يرسل أشعة الشمس ككل يوم ••

أغمضت عينى ورحت أحصر تفكيرى •• أى يوم هذا ؟ •• حاولت أن أتذكر تفاصيل ما حدث بالأمس •• هل كان الأمس ؟ ••

طاف السؤال بخاطرى فقررت الخروج ••

ألقيت نظرة من الشرفة •• كانت السيارات تقطع الشارع الذى راح يعبره بعض الناس •• أشار الى أحدهم فرفعت يدى محييا واستدرت داخلا أرتدى ملابسى ••

فى الحافلة سألت الرجل الى جوارى : أى الأيام هذا ؟

ابتسم الرجل ثم وضع وجهه فى جريدته وراح يواصل القراءة ••

تركت مقعدى ونظرات الرجل المستخفة تتابعنى ••

قلت للسائق اننى أريد النزول الآن ••

أدار وجهه نحوى ولم يتكلم فوقفت منتظرا ••

كان ضــوء النهــار شديدا فى الشــوارع التى امتلأت بالناس •• توقفت أسأل عن اسم الشارع وقد بدأت أحس فى رأسى ألمــا راح يشتد وساورتنى رغبــة فى القىء فهبطت من فوق الطوار ورحت أركض وسط صفوف الســيارات أعبر الطريــق ••

عندما دوى الصوت ، طن الصمت فى أذنى وسكت كل شىء ••

كان قرص الشمس بعيدا عندما رأيته ••

من فوقه أطلت ســماء باهتة الزرقة لا نجوم فيهــا •• وتناهت الى سمعى غمغمة أصوات متداخلة وتناثرت من حولى وجوه كثيرة ••

سرح فى ظهرى ألم شديد كلسعة النار ثم توقف فغشينى احساس بالراحة وسقط ظلام هادىء لم تبق معه الا تلك الصورة المعلقــة على الحــائط فى اطارها تبتســم •• فاغمضت عينى وابتسمت ••

•••••••••••

•••••••••••

هل كان اليوم الأربعاء ؟

فى قيعان ذاكرتى يصفر الخواء ••

أدور فى الشوارع أبحث عن ذلك البيت .. تلك الغرفة .. أفتش فى الوجوه عن تلك الصــورة المعلقة على الحـائط فى اطارها تبتسم ..

« يهدر الدم فى عروقى .. اهز كتفيها .. تمتلىء عيناها خوفا وضراعة .. أصرخ فى وجهها : لمن اعطيت مفتاحك ؟ لمن ؟ .. ومن فتح بابك ؟ من ؟ من ؟ » ..

أنظر فى الساعة الى جوارى وأرفع عينى الى الصــورة فأراها ترسل ابتسامتها ما تزال .

أمد ذراعى أطفىء النــور مديرا الى الحـائط وجهى أحاول أن أنام ..

أرضى لك ! ...

وما تزال ضحكتها تتردد فى ردهات قلبى التى خوت الآن الا من بقايا عطر أنثوى يطوف بفضـــاء الفراغ الذى أطوى عليه صدرى ..

....

....

فى غرفتى التى أسكنها بأعلى البناية فى ذلك المكان بأطراف المدينة يقبع الليل فى انتظارى فى نهاية كل يوم .. يحملق فى وجهى فأرفع الى وجهه عينين بللهما الصمت المقهور ولا أقوى على التحديق فانكسهما على الفور وأقرر الخروج الى ليــل

المدينة البارد وحيطانها التى تحضن دفئها داخلها وتنام عليه ..
أمام نافذتها أقف ..

أتطلع اليها بعينين مهيضتين وأزفر بخار المـاء مع أنفاسى الساخنة وقد بدأت الشوارع تزداد خواء وظلمـة ، وأروح أرقب أضـواء اللافتات الراقصة تنبض بحياة لا حياة فيها رغم صراخ الألوان الذى لا يكف عن الالحـاح بعد ان ماتت الحركة من حولى الا من ضوء خافت للمقهى الذى بدأ يستعد للاغلاق وبقايا بعض الناس تنتظر فى أمل يكاد يموت يأسا ، حافلة أخيرة تحملهم الى بيوتهم ..

أودع نافذتها بنظرة لم ينضب منها بعد حلم اللقاء وأخطو متثاقلا أعبر الشارع بعد أن لاح من بعيد هيكل الحافلة العملاق وراح يهدر فى سمعى صخبها ممزقا هدأة السكون الجاثم على المكان ..

خطفت نظرة سريعة الى ساعتى واستدرت استقبل ارتطام الجسم المعدنى البارد بوجهى ثم سكت كل شىء ..

عندما فتحت عينى لم أر الا ذلك الجزء من طلاء السقف المتشقق يكاد يسقط فوقى فرحت أحسب مكان سقوطه فوق طرف الملاءة عند سـاقى اليسرى التى أحسستها ثقيلة بعض الشىء .. حركت أصابع قدمى من تحت الملاءة فأدركت على

الفور ان ساقى اليمنى سليمة .. هممت أرفع رأسى محـاولا أن أرى ساقى فدارت بى الغرفة وسقطت فى مكانى .. أدرت وجهى ببطء ناحيـة النافذة التى بدت من ورائها على البعد بعض أوراق الشجر الخضراء المتربة ساكنة وبقايا من ضـوء شمس ترحل بعيدا ..

أضىء نور الغرفة فبربشت بعينى قليلا ثم أغمضتهما لأحس بذلك الظل الذى انطرح فوق وجهى يحجب الضـوء عنى .. فتحت عينى لأرى عينيها تغمران الغرفة نورا ..

قلت وايقاع الفرحة داخلى يرجنى : « وليس فى الوجود حياة لحى لم تشرق عليها عيناك » ..

أضاءت ابتسامتها وامتدت أصابعها تلمس جبهتى فسرى فى جسمى خدر أثيرى ناعم ..

أغمضت عينى أحتضن اللحظـة داخلى واهصرها وأذوب فيها محلقا فوق دبيب الألم الذى راح يرتفع دونما توقف حتى يبلغ ذروته ، ثم يبدأ فى الانحسار رويدا ليسكت فجأة .. ويعود يظلم من جديد كل شىء ..

....

....

كانت شمس الصبح قد حشرت وجهها فى حديد النافذة وراحت باصرار ترقبنى لا تريد أن ترفع من فوقى عينيها .

استدرت ناحية الباب وأوليتها ظهرى حتى تنصرف ..

قالت الممرضة من طرف الغرفة وقد انحنت فوق المنضدة :

ـ أسبوع كامل منذ جئت الى هنا لم يزرك أحد !!

قلت موضحا بابتسامة عراها بعض الخـوف بينما أبلع ريقـي :

ـ هى جاءت فى اليوم الأول ..

ردت وعيناها الواسعتان تقتربان لابتـلاعى : هى .. من ؟ !

واضافت بصوت كالنصل البارد :

ـ لم يدخل غرفتك غيرى والطبيب !!

بلعت ريقى وقد غارت ابتسامتى بعيدا ..

أدرت لها ظهرى استقبل وخزة الابرة وانسحابها ، واسمع انغلاق الباب خلفها ..

اعتدلت فى فراشى أحملق فى ظلام الغرفة الذى راح بطيئا يقترب منى فأشعر بالاختناق وأهب لأضىء نور الغرفة محاولا أن أتنفس فى عمق واضعا وجهى بين كفى أحاول أن أتذكر ..

« قلت لها : أنذا .. قد ملأت اشرعتى الريح .. اتهيأ للابحار اليك »..

« قالت : هى ذى أرضى لك .. فلترس سفينتك بشطآنى ولترو مياهك أرضى العطشى لك .. ولتزرع كل اليابس فى أرضى المفتوحة تنتظرك .. ينتظر البرعم ان يزهر .. ينتظر الثمر النضج على لمس يديك » ..

« وأقول : قد خضت طويلا فى الماء الضحل .. فلا أرضك بانت .. لم أعرف أى أراضيك سأحرث .. لا أدرى أى أراضيك سأروى وبأى الشطآن سأرسو .. الريح تحطم أشرعتى .. والموج .. الموج سيغلبنى .. وحطامى لن ينجو أبدا .. لن يعرف يوما مرفأه عندك » ..

....

....

الليل .. حارات طويلة ملتوية لا تفضى الى شىء .. أدور معها فأستشعر عمق وحشتى وأدرك انني كنت القاتل والمقتول .. السيف والرقبة ولحظة التنفيذ واننى فى تلك اللحظة كنت اهوى على نفسى أضربها بلا تردد لأسقط اتخبط فى عجزى ويأسى ..

فى ذلك اليوم وقفت فى المصعد الكالح .. تحت الضوء الكابى وحيدا أنتظر توقف المصعد وانفتاح الباب لأعبر الدهليز المظلم .. أتردد لحظة قبل أن أضع أصبعى على الجرس ..

واتنظر حتى ألمح ظلها يتحرك خلف شريط الزجـاج المنقوش وأسمع رتاج الباب ينفتح وأرى شريط الضوء يأتى من الداخل يطرح ظلها تحت قدمى ..

أرفـع عينين مفعمتـين ودا الى وجههـا الذى أعرفـه فلا يعرفنى ، ويطل من عينيها سـؤال يصرخ صمته فى وجهى منكرا جرأتى فأتراجع .. أتراجع .. واسـتدير مبتعدا أقفز الدرجات وصراخ سـؤالها الصـامت من خلفى يلهب ظهرى وأسمع وقع خطواتى يتردد من حولى فى سكون المبنى الموحش. ألقى بنفسى فى زحام الشوارع .. ابتعد ولا أنظر خلفى .. وأدور .. أدور .. مع الحارات الطويلة الملتوية التى لا تفضى الى شىء ..

....

....

« فى عمق عينيها سرحت .. ورحت مأخوذا أجوس الى جوار الأعمدة وتحت القباب .. أعبر البوابات المفتوحـة ، وأمرق فى الدروب أبحث عن عنوانى الذى أعرف أنه فى مكان ما هنا ترشدنى بواكير شمس محبتى الوليدة فاكتشف أن للدنيا وجوها لم أكن أعرفها تبتسم وتضحك وتعبس وتعابث ، فأضحك

واندهش وأقفز وأجرى وأدور وقد ملأنى زهو امتلاكى للدنيا التى لم أكن أعرف انها ملكى لولا اننى من هنا دخلت » ..

كان قلبى ينبض بشــدة فى كفى التى مــددتها لها عندما التقينا على السلم .. ترددت لحظة ثم وضعت فى يدى كفــا باردة سحبتها بسرعة واستدارت مبتعدة .. وقفت حائرا لحظة ، ثم سحبت يدى الممدودة فى الفراغ ومضيت أهبط السلم ..

فى الحــافلة التى أقلتنا عائدين عصر ذلك اليوم اخترت مكانى الى جوارها فزحفت مبتعدة ..

ابتسمت لبعض الزمــلاء الذين التفتوا نحونا . همست أسألها دون أن أدير وجهى نحوها : لمــاذا ؟

لكنى لم أتلق ردا ..

غامت الدموع فى عينى فلبثت مطرقا ..

التفتت نحوى بشدة فرفعت اليها وجها متوسلا ..

قلت وما أزال أتعلق بخيط أمل أخير « وليس فى الوجود حياة لحى لم تشرق عليها عيناك » ..

خرج صوتى غريبا ..

كانت كل الأنظار قد تركزت فوقى •• وساورنى احساس اننى قد بدأت الآن رحلة عودتى من عينيها اللتين راحتا تغلقان أبوابهما من خلفى فأضفت : « أنذا أدرك الآن اننى أموت وحـــدى فارفعى سكينـــك عنى فقد حم قضـــاؤك وصـــارت مشيئتك •• فاســـتريحى الآن » •• ثم هممت واقفـــا أتهيـــأ للنزول ••

•••••••••••

•••••••••••

أحزان فتاة لا تشكو ..!

تلك الليلة عادت تحمل جرحها ودموعا كثيرة ..

في التاكسي الذي عاد بهما ضغط كفها قبل أن تنزل .. التفتت اليه صامتة وحاولت أن تبتسم ..

قبل أن تغيب في مدخل المبنى استدارت تلقي عليه نظرة أخيرة .. أشار لها .. حاولت أن ترفع يدها .. لم تستطع ..

أمام المصعد وقفت تحبس فيضان الدموع داخلها .. وضعت المفتاح في ثقب الباب وأدارته في حذر ودخلت تنسحب .. لا تريد الليلة أن تواجه عيني أمها ..

كان الضوء فى الداخل شاحبا على غير العادة ..

فاجأها الصوت : « تأخرت ! » ..

ترددت لحظة ثم أجابت بصوت جاهدت لتوقف ارتعاشه « قليلا ! » ..

مرت لحظات أحست بها عمرا طويلا .. انتظرت فترة فى مكانها ثم أكملت خطواتها الى غرفتها ..

وهى تستبدل ملابسها وقفت تتأمل جسدها أمام المرآة .. أحست به غريبا عليها .. وأنهـا لا تعرفه .. أكملت ارتداء ملابسها واندفعت الى الحمام .. أغلقت خلفها الباب وأطلقت كل دموعها المكتومة مندفعة مع سيل المـاء الذى راح ينساب فوقهـا ..

من بين ضباب دموعها رأت كل شىء ..

وارتفع نحيبها ..

وهى فوق تلك القمة التى يسقط عندها بعض النـاس سألته : « ستتزوجنى ؟ » .. من بين لهاثه قال بسرعة كمن أعد الرد « طبعا .. طبعا » ..

شىء ما داخلها قال لها انه يكذب .. لكنها أسرعت تطرد ذلك الخـاطر .. كانت تحس أنها لابد أن تصدقه الآن ..

أحكمت لف حبل الأمل حول معصمها وتشبثت به لا تريده أن يفلت منها .

قال وهو يضع الزجاجة ولفافات الطعام انها من اليوم تستطيع أن تعتبر نفسها زوجته .. المسألة مسألة وقت لا أكثر ..

رأت نفسها متعلقة فى ذراعه وطفلهما الى جوارها تمد له ذراعها بينما هم يعبرون الشارع .. سرحت لحظات وراء حلمها الذى تحسه الآن يبتعد وابتسمت .. أحست ذراعه تلتف حول رقبتها وأنفاسه تلفح وجهها .. استدارت نحوه .. رفعت عينيها الى وجهه .. رأت فى عينيه نظرة تتأهب للانتصار .. لم تتردد وقامت تبحث عن مكان تعلق فوقه جاكتتها ..

....

....

جاءها صوت الأم يستحثها ..

« حالا » قالتها دون تفكير ..

لم تكن تحس فى نفسها هذا الصباح رغبة فى عمل أى شيء وقررت ألا تخرج من الفراش ..

شيء كالحمى راح يهز بدنها .. رفعت كفها تتحسس جبهتها ..

قالت لنفسها انها لن تذهب الى عملها اليوم .. لا تستطيع أن تواجه أحدا .. ستعتذر لمرضها .. واستراحت للفكرة ..

من غرفتها نادت بصوت ضعيف .. قالت انها اليوم مريضة ولن تستطيع الذهاب الى العمل .. سمعت خطوات الأم تقترب فأسرعت تحكم الغطاء حولها ..

عند الظهر جاء تليفونه يسأل عنها ..

قالت انها متعبة قليلا ..

تبادلا بعض الضحكات الفاترة ..

قال بصوته المنتصر يحسم الأمر فى نهاية المكالمة انه سينتظرها الليلة فى نفس المكان .. ورجاها فى رقة ألا تتأخر ..

أزاحت الغطاء عنها فى بطء .. وقفت تنظر الى وجهها فى المرآة .. تأملته طويلا .. كان شاحبا .. سرح داخلها هاجس أن الضحكة التى عرفها هذا الوجه طويلا لن تعود اليه منطلقة من قلبها كما كانت .. مدت كفها تسوى شعرها المهوش ..

تذكرت ابتسامته بالأمس .. وصوته اليوم فى التليفون

وضحكت .. ضحكت طويلا .. الآن تأكدت أن هذه الضحكة ليست ضحكتها التى تعرفها ..

فى المساء كانت تستعد للخروج ..

فى الشارع أوقفت احدى سيارات التاكسى .. أنزلت الزجاج .. كانت تحتاج للهواء بشدة ..

من خلال عينين انطفأ فيهما البريق القديم راحت تتابع لافتات المحلات المفعمة بالألوان .. تقتحمها الأضواء وضجة الشارع .. لكن شيئا داخلها قد تغير .. تحس ذلك الآن .. لم تعد تلك الفتاة التى كانت تعرفها ..

نكست وجهها فى حجرها .. قالت لنفسها انها وضعت كل اخلاصها تحت قدميه لتثبت له حبها .. وأن ذلك وحده يكفى فماذا فى الدنيا يحتاج الرجل غير اخلاص امرأة تحبه ؟ !

توقفت السيارة فى الاشارة ففكرت لحظة فى أن تنزل لتعود ..

ارتفع هدير أبواق السيارات من حولها فقررت أن تكمل مشوارها معه ..

كان حبل الأمل ما يزال ممدودا أمامها رغم الجرح الذى ما تزال تحمله ..

أحست والسيارة تدور عند آخر منعطف أمام نفس المنزل الذى دخلته بالأمس أنها تسمع صـوتا لشىء داخلهـا ينكسر بشـدة ..

قبل أن يتوقف التاكسى أخرجت منديلها تجفف دموعها .. أعادت المنـديل الى حقيبتهـا .. تنفست فى بطء .. جمعت قبضتها .. ثم استعدت للهبوط ..

ظـل الرجـل

وجهها هـذا الذى تراه أمامهـا الآن فى المرآة : ليس وجهها ..

نفس الملامح نعم .. لكن شيئا ما حدث ..

أغمضت عينيها لحظات واسترجعت ..

فى سماء ليلها الحزين سطعت نجمة وحيدة فأضاء الليل .. وتبددت وحشته ..

فتحت عينيها ومالت تطل عليه فى الغرفة المجـاورة .. نحيفا كان كلما رأته أول مرة ..

كان يختم صلاته ..

سألت نفسها :

ـ أى رجل هو ؟ أى قوة تلك التى شدتها بعنف نحوه وهى التى عاشت ترفض الفكرة .. ومن تلك التى ترضى بالقيد يوضع فى يديها وقدميها لتصير جارية لرجل تحكمه العقد ؟

تذكرت كيف بدأت علاقتها معه .. كانت تريد صديقا ..

أرضها الخضراء التى أرهقتها العطش والحر وسرح فيها الملح بدأت أشجارها تعرف اللون الأصفر ..

رغم كل كلمات المجاملة الرقيقة التى تسمعها وتطن من حولها كانت تعرف ان زهورها لابد يوما ستذبل .. بل أنها تحس أنها قد بدأت رحلة ذبولها منذ زمن لا تستطيع أن تحدده لكنها تحس ذلك وتعرفه ..

كانت تريده صديقا ينير أمامها الطريق ويقود خطواتها فيما بقى من العمر ..

اقتربت من المرآة تتفرس فى وجهها ..

هل ما زالت تلك الفتاة المرحة الجريئة التى تملأ الحياة من حولها ضحكا وصخبا ؟

سألت نفسها ..

وكانت تعرف الجواب ..

فكرت للحظة ..

لمـاذا أرادته صـديقا .. ولمـاذا أرادها هو زوجـة ؟ ولمـاذا وافقت هى ؟ ولمـاذا انهارت مقاومتها التى استمرت كل هذه السنين فى لحظات أمامه ؟

قالت تواجه نفسها :

ــ نعم كنت أتمناه زوجا أنا أيضا .. وأضاءت وجهها ابتسامة ملأت نفسها شعورا بالرضا .. تذكرت كل الرجـال الذين رفضتهم أزواجا لها .. وتعجبت لهذا القدر الغريب ..

للآن لا تعرف كيف حدث كل هـذا .. بل أنها تتصـور أحيانا انها تعيش حلما لا تريد أن تصحو منه ..

سمعت صوته يناديها فأسرعت اليه ..

تحب صوته يتردد فى بيتها ..

مد لها ذراعه فضمتها الى صدرها .. رفعت كفه الى فمها وقبلته وفى عينيها دموع ..

مد أصابعه يمسح الدموع عن وجهها فمالت تريح رأسها فوق صدره ..

الآن تدرك أنها كانت تحتاج هـذا الصدق الذى ظلت

تبحث عنه طويلا حتى يئست من العثور عليه فقررت أن تكمل مشوارها وحيدة .. لكن بئر الحنان التى تفجرت تحت قدميها اندفع ماؤها عفيا يروى أرضها التى كادت تموت عطشا فتغير من حولها شكل الأشـياء وبدت وكأنها ترى الدنيـا بعيون جديدة ..

نفس الأشياء .. تراها الآن مختلفة .. مشـوارها الى عملها .. شكل المبنى .. المصعد .. الحجرات .. حتى الناس كلها تغير شكلها فى عينيها منذ دخلت عالمـه .. منذ أدخلتـه قلبهـا ..

قالت لنفسها وهى تسمع دقات قلبه :

ـ حرارة صدقه هى التى كنت أفتش عنها وها هى الآن معى .. وأغمضت عينيها ..

أحست أنامله تتخلل شعرها وسرى صوته فى كيانها كله .. يهدهدها صوته وتحس نفسها طفلة بين ذراعيه .. رفعت وجهها اليه وابتسمت ..

قالت فجأة متظاهرة بالجد :

ـ اسمع .. قد قطعت مشوارا طويلا تحت حر هـذه الحياة وحيدة لكننى قوية .. أخفى مخالب عنفى دائما متحفزة للانقضاض فى الوقت المناسب وليس لدى وقت أضيعه الآن .. هل تحبنى ؟

قالتها .. وغمرها شعور قوى أن العمر يعود بها فتـاة تتفتح للحيـاة .. زهرة تعانق النور وتستقبل ندى الصبح الطالع تحسه فوق أوراقها لأول مرة ..

همست :

« معك أحس أننى أولد من جديد .. وأدخـل عالمـا لم أكن أعرفه .. عرفته لحظة عرفتك » ..

ضمها الى صدره فى قوة ..

غمغمت :

« هـذه السنين التى عشتها .. نسيتها الآن .. ونسيت زحام الأصـدقاء .. وصخب الأضـواء والسهر .. وضجة العمل ودوائر العلاقات المتشابكة وهموم السـفر ومطـاردة الحياة .. وذلك اللهاث الذى لا يهـدأ كلما خضت صراعـا انهزمت فيه أو انتصرت .. أحس الآن كل شىء يهـدأ من حولى .. والحيـاة تصـفو فأسـتمع الى صـوتها الحقيقى ينادينى .. ناعما .. منغوما .. وأراهـا تفتح لى ذراعيهـا فاستدير اليها أعانقها كالمسحورة .. لكنها .. تعرف .. ليست كالحياة التى كنت أعرفها .. هـذا وجهها الهـادىء الوديع الذى .. » ..

سـألته :

ــ أتسمعنى ؟

هز رأسه ..

قــالت :

« كنت أعرف أن حيــاتى المزدحمــة هذه خاوية خواء الموت .. تصفر فيها الوحشة ويسكنها الظلام وتعشش فيهــا المخاوف والأحزان رغم كل ما كانت تعج به من أضواء وأصوات وبشر .. كنت أعلم اننى أبحث عنــك .. ولا أعــرف كيف أسميك .. ولا أعرف أين ولا كيف ولا متى أجدك » ..

وتنهدت ..

ربت فوق رأسها .. ومسح على شعرها ..

مدت كفها نحوه ..

بأصابعها عانقت أصابعه .. تأملت عينيه الهادئتين .. فوق كتفه عاودت نومها ..

ســألته :

ــ أتعرف ماذا يفعل الطفل عندما يخاف ؟

قالت قبل أن يجيب :

ــ يصرخ .. نعــم يصرخ .. ليضىء الظــلام أمامــه

بصوته •• صوته هنا هو أنيسه •• هكذا كنت أنا •• أملأ الحياة من حولى صخبا وصراخا وضحكا أشبه بالبكاء بينما يعربد الفراغ فى قلبى •• وأظل هكذا حتى لا أسير وحدى فى الظلام والوحشة وأنت لست الى جوارى ••

ترددت تسأله :

ــ لمــاذا اختارها زوجة ؟

حبست أنفاسها تنتظر الاجابة ••

قال بصوته الممتلىء حبا :

ــ لأنه قرأ فى عينيها ما لم يستطع رجل غيره أن يقرأه••
صوته يطوف بها كهبات النسيم فى ليلة صيف أرهقهــا الحــر ••

أضاف انه سمع نداءها •• من مكان بعيد داخل أعماق روحه كان قد نسيه سمعها تناديه فاكتشــف انه أيضــا كان يناديها •• وانه الآن يرى أن مشوار حياته مهما طــال كان لابد أن ينتهى اليها تماما كما قادها خط حياتها اليه ••

أغمضت عينيها وسرحت تتأمل ذلك الشريط الطويل من حياتها يمر أمامها وأحست أنها تستريح الآن تحت ظل شجرة وارفة بعد أن طال بها المشوار تحت شمس حياة لا ترحم وحر

يمعن فى القسوة والقهر .. ورأت أنها كانت تسير وسط صحراء لا مكان فيها لأى ظل حتى رأت على البعد ظل ذلك الرجل الذى أحبته ..

هدأت أنفاسها .. وأحست أنها تستطيع الآن أن تنام مطمئنة ..

مستطيل الضوء
الشاحب تحت النافذة

دخلت الشمس من الشبابيك •• حطت على الأسطح ثم زحفت لتهبط سائلة على الحيطان وتسقط بنورها داخل الشقق والبيوت •• انطفأت العتمة داخل حجرته وسطع ضوء النهار ، تقلب فى الفراش •• لابد أن يصحو •• حسن •• سيصحو ، لكن بعد بضع دقائق أخرى •• راحت أصابعه تبحث عن الغطاء ، لم تجده ، سكنت الى جواره •• خبط الوسادة بكفه فى ضجر •• زفر ثم اعتدل جالسا وراح يحملق حوله بلا تركيز •• الآن بدأ يعود اليه وعيه •• الساعة •• سيبحث عن الساعة ليرى هل ما زالت هناك بقية من الوقت

يتأهب فيها قبل أن ينزل الى عمله •• سيفطر فى الشارع •• ليست حكاية ، فهكذا روتين كل يوم •• تعود عليه •• يفعله دون تفكير •• كالمنوم •• وما حاجته الى التفكير •• عمله حتى يؤديه بلا تفــكير •• يتطـلع الى وجوه زمــلائه •• أحيانا يعبسون •• يرتفع صوتهم •• قد يهمسون أو يبتسمون أو حتى يقهقهون ويخبطون على المكاتب بقبضاتهم ، يراهن انه لو وضع قطنا فى أذنيه فسيعرف بالتأكيد موضوعات أحاديثهم ، يستطيع ترديدها بنفس ألفاظهم كم عاما مضت عليه معهم ؟ حاول أن يتذكر •• الدهليز الطويل كالنفق المظلم المؤدى الى الحجرة التى وضعوا فيها مكتبه يمر على حجرة رئيس المكتب •• قرر ألا يقرأ اللافتــة النحاسية المعلقة على الباب •• كم مرة فى اليوم اتخذ هــذا القرار ولم ينفذه •• كم يوما فى الشــهر •• فى السنة •• فى مجموع السنوات التى أمضاها فى المكتب يقرأ نفس اللافتة •• يقرر أن يتجاهلها ولا يستطيع •• مكتبــه فى الحجرة الى جوار النافذة الخشبية العريضــة المشرفة على فناء الديوان •• حاول فتح النافذة على آخرها ، لم يستطع •• أعاد ضلفة النافذة كما كانت ليتيح لنفسه مجالا أوسع للحركة •• ضحك فى سره •• الحركة ؟ أى حركة فهو لا يفعل الا الجلوس والنظر فى وجوه زمــلائه فى الحجرة •• تشــاغل بفتح درج المكتب •• راحت أصابعه تعبث بالأقلام •• التقط السيجارة المتبقية من نهار الأمس •• بحث فى جيوبه عن الكبريت ، قام

من مكانـه الى المكتب المواجـه ، على حافتـه جلس وطلب كبريتا •• انحنى يشعل سيجارته •• شكر زميله بهزة من رأسه وعاد الى مكانه •• لا يذكر ماذا قـال بالتحديد •• لم تعد للكلام أهميـة •• أى فرق مثلا بين ان يسـأل : هل معك كبريت ؟ أو أن يطلب مباشرة : اشعل لى سيجارتى ، أو ناولنى كبريتك أو حتى مجرد أن يشير له الى السيجارة ليفهم انه يريد اشعالها •• ما الفرق ما دامت النتيجة واحدة ؟ اختيار الألفاظ ليس مهما هنا ــ هكذا يعتقد ــ لكنه قد يكون مهما وحاسما وأكثر تحديدا فى مواقف أخرى •• مثل •• مثل •• لا يهم الآن مثل ماذا •• لكن لابد أن الدقة والتحديد ضروريان فى مواضع أخرى لها كلام آخر •• نظر الى ساعته •• مازال النهار يمر بطيئا •• فكر •• بالأمس كانوا يتكلمون عن المروحة التى وافقت الادارة على وضعها بالمكتب •• أكيد سيحاول كل منهم أن يـكون مكانهـا أقرب اليه •• هو •• لن يسـأل •• سيتركهم يختارون ما يشاءون •• لن يكون غبيا فيشترك معهم فى جدل عقيم •• ترتفع أصـواتهم كالأطفال حتى يخرج اليهم رئيس المكتب غاضبا لينهرهم •• سيخرسون على الفور •• الجبناء •• سيتشفى فيهم •• هو •• سيظل مكانه فاردا ساقيه تحت المكتب •• لن يراهما رئيس المكتب •• واضعا ذراعيـه فوق المكتب صامتا •• سيندهش لسكوته •• لن يرد عليه حتى لو كلمه •• ربما أجاب على قدر السـؤال •• ليس مثلهم ••

سنرى .. لا يضايقه شىء فى الدنيا قدر خجله من استقبال أى زائر فى مكتبه .. العثور على مقعد واحد سليم مشكلة .. ثم .. أين يضـع المقعد والحجرة تكاد لا تكفى من فيها .. كم مرة يطلب من صبى البوفيه شايا أو قهوة للزائر ولا يجىء.. يدفع حسـابه نعم .. آه .. ربما البقشيش .. الأهم هو أن رئيس المكتب لا يختار وقتا لسـؤاله عن العمل أو لتكليفه بأى المهـام الا فى هـذا الوقت .. يزداد حرجـه .. كيف يرد عليه .. يكتفى بهز رأسه بالموافقة .. يرتفع صـوت رئيس المكتب : نعم ؟ كفه خلف أذنه .. يضطر لرفع صـوته مجيبا : حاضر .. حالا .. ليقفل باب الكلام فى الموضوع ..

حكى لها مرة عن كل هذا .. بعضه ربما .. لا يتذكر .. وافقت على رأيه .. أضافت ان هـذا ليس جوهر الموضوع فكل هذا لا يهم .. قالت المهم هو نحن .. خمن انها تعنى أنا وأنت .. لا يحب الاقتراب من هذا الموضـوع ولا تكف هى عن افتعال أى مناسبة للدخول فيه .. لا يدرى أين كان يختبىء كل هـذا الغضب عندما صرخ فى وجهها محذرا من العودة لمثل هذا الكلام .. بان الذعر على ملامحها .. توقفت .. فمها نصف مفتوح .. تتجمع فى عينيها دموع كثيرة .. لا يقوى على الاستمرار فى النظر الى عينيها .. أطرق برأسـه لحظة ثم أشاح بوجهه بعيدا .. استأنف الناس سيرهم بعد لحظة تردد ..

سحبها من ذراعهـا دون أن يلتفت اليها •• سارت خلفه مطأطئة الرأس •• حاول أن يشرح لها •• كان مخلصا يحـاول أن يوضح سبب ثورته •• فعل كل ما يستطيع ليخرج كلامـه منطقيا ومقبولا •• هو نفسه لا يصـدق أحيانا ما يقوله لنفسه وللآخرين •• لكنها يجب أن تصدقه الآن •• وقف فى مواجهتها تماما •• أمسكها من كتفيها •• هزها •• هبطت كفاه تمسكانها من ذراعيها •• وجههـا مستسلم •• أغمض عينيـه برهة •• فتحهما •• قال انه يعتذر لها عن كل ما حدث •• ثم استدار ومضى مبتعدا ••

••••••••••

••••••••••

فى مستطيل الضوء الشاحب الساقط من النافـذة كان يجلس معتمدا برأسه على قبضتيه •• انحسر الضوء وانسحب تاركا الحجرة تغوص ببطء فى الظلام •• الصمت يلف كل شىء حوله •• أصـوات الشارع البعيد تصل اليه ضعيفة متداخلة لا يستطيع التمييز بينها •• ضـوء مصباح السلم يتسـلل خلال زجاج الباب واهنا •• كل خلية حية داخل كيانه المتعب تتمنى مجيئها •• يحس بمسام جسمه كله متفتحة تنتظر نقرة أصابعها السريعة على الزجـاج •• طافت بذهنه فكرة أن يخرج يفتش عنها فى كل مكان فربما لا تجىء •• هل يذهب الى حيث تركها ؟ لا يحتمل الانتظـار الى الغد •• لو جاءت الآن ••

من يدرى .. قد يسألها ان توافق على الزواج منه .. لا ينكر .. لا يستطيع أن ينكر انه يحتاجها .. لا يثق كثيرا فى مشاعره صباح الغد .. ربما لن يراها .. ربما أيضا يظل جامدا على موقف الأمس دون أن يتقدم خطوة .. الآن كل شىء .. أو .. لاشىء بالمرة .. على الاطلاق .. نعم .. يحتاج اليها بالفعل .. لا يتصور فكرة انه يستطيع الاستمرار فى حياته بدونها .. لا ينسى أنفاسها تلفح رقبته .. أناملها الرقيقة تتحسس وجهه وتعبث بشعره .. همسها يتسلل الى دمه .. يفتح أمامه كل الأبواب .. من أين تجد حلا لكل شىء .. لا يريد منها سوى هذا الشعور بالأمان الذى تنشره حوله وتبعثه فيه .. يحب ابتساماتها كبقع الضوء تلمع وسط ظلام حياته .. ابتسم لنفسه عندما تصورها سفينة تحمله .. هى سفينته التى يبحر بها .. يشق بها أمواجا كالجبال .. أعجبته فكرة ان المرأة سفينة .. ليست أى امرأة ..

قرر أن يحكى لها فكرته هذه عنها .. ستضحك وتمد كفها مفرودة الأصابع تتخلل أصابعه .. تطوح رأسها للخلف فيهتز شعرها .. فتاة طيبة ــ قال لنفسه : متى تجىء ؟ لابد انه انتظر طويلا .. لا يدرى كم من الوقت مر وهو جالس فى مكانه لا يتحرك .. نهض .. كان خيالها خلف الزجاج .. نعم هى .. طولها .. عرضها .. كل مقاسات جسدها يعرفها ..

شعرها عندما تفرده •• عندما تلمه •• بلوزتها السماوى ذات الياقة القصيرة المستديرة وأساور الأكمام المنتهيــة بالدانتيل •• بلوزتها السماوى تتحرك خلف زجــاج بابه •• لابد أنهــا تضع خاتمها ذا الحجر الأصفر حول أصبعها فهى تحب هــذا الخاتم بالتحديد •• يذكر يوم اشتراه لها •• لم تتردد لحظــة فى الاختيار •• خطف بصرها منذ النظرة الأولى •• تأملته من كل زواياه ، قبلتــه ووضعته حول أصبعها قلبت كفهــا أمام عينيها ، مدت ذراعها على آخرها ونظرت الى الخاتم •• كانت عيناها فى ذلك اليوم ضحكة كبيرة لا ينساها •• امتدت أصبعها تنقر فوق الزجــاج •• ببطء اتجه نحو الباب •• وقف خلفه يستمع لنقرات أصابعها •• يحب أصابعها •• نقراتها على الزجاج هى أجمل ما يسمع من أصوات فى هذه اللحظة ••

سينتظر حتى تعيد النقر على الزجاج مرة ثانيــة وثالثة ثم يفتح •• مد كفه يسحب المزلاج ببطء شديد مستمتعا انه يفتح الباب •• سيزيح ما يفصل بينه وبينها •• أليس الباب الآن هو كل ما يمنعها عنه ويمنعه عنها •• سيفتحه ••

ها هو يفتحه •• لن يكون بينهما أى حاجز منذ اللحظة•• لو استطاع نسف البــاب لفعل دون تردد •• على آخره فتح الباب أمامها •• تراجع خطوة للخلف يفسح لها لتدخل •• أغمض عينيه ليضاعف من وجودها معه •• مرة أمامه وأخرى

فى خياله .. مد ذراعيه يحتضنها لدى أول خطوة لها داخل الشقة .. تهيأ لها فى حضنه .. هوت الكف على صدغه سريعة باترة .. كالنار لسعته أناملها .. فتح عينيه بسرعة مذهولا .. فيهما تساؤل لا يفهم ما يحدث .. كانت عيناها مملوءتين غضبا .. قالت كلاما كثيرا .. لم يكن وجهها أمامه هو الذى يعرفه .. الذى انتظره وحلم به .. كان وجها عدوا متجهما لا يأبه له وربما أيضا لا يعرفه .. طنت فى رأسه مئات الأفكار .. لم يسمع حرفا مما قالت .. تجمد السؤال ــ لماذا ــ فى عينيه حتى فقد معناه .. استدارت تهبط الدرج بسرعة .. رغم الطنين فى أذنيه خيل اليه لآخر لحظة انه مازال يسمع طرقعة خطواتها الهابطة على السلم ..

الليل والصمت والغضب !

على شاطىء الصبح نمت ..

أغمضت عينى مستسلما لتلك الراحة الكبيرة التى تسرح داخلى فيما كان الضوء الباهر يغطينى ويفرش كل الأشياء من حولى ، مسترجعا نشوة انتصار الأمس الرائع وجثة الطـائر الأسود ترقد غير بعيد منى ، بقعة سوداء بلا معنى ، ذكرى ميتة لليلة لن تعود .

....

....

عندما « طاش » الخبر فى البلد لمع فى العيون شىء غريب . فى نظرات الرجال المقتحمة المبللة بالدهشة والاستفسار رأيته ، وعرفته فى عيون النساء المتلصصة تصعد الى وجهى تبحث فيه عن شىء أجهله ثم تنسحب فى سرعة وتنكفىء على الأرض متلفعة بالحياء المصنوع .

اقتربت رؤوس الرجال .

دخلت والقيت التحية فتناثرت رؤوسهم مبتعدة وغمغمت تحياتهم المرحبة تفسح لى مكانا بينهم فربما حكيت كل شىء .

سحبت مقعدا وابتعدت . فردت ساقى وتمطيت متثائبا ثم اعتدلت . ناديت أطلب الشاى وأمسح بباطن كفى دمعتين كسولتين انسابتا فوق وجهى .

من خلف أشجار الكافور البعيدة هبت نسمة هواء باردة فأغمضت عينى لحظة استريح . انتبهت بعدها على صوت المقعد الذى وضع فى جوارى .

استدرت فرأيت عزازى وقد اقترب بجسمه الممتلىء ووجهه السمين الذى يرشح عرقا مائلا نحوى . تلفت حوله فى سرعة ثم همس يسألنى وابتسامته المتهدلة تكاد تسقط من وجهه ان كنت أعلم بما يحدث . أضاف مؤكدا قبل أن يتلقى جوابى اننى ولابد أعلم .

اعتدلت وقد بدأت المسألة تثير فضولى . هززت رأسى نفيا وقد تقطب وجهى .

تراجع الى الخلف قليلا ثم مال من جديد يقول كأنما يكلم نفسه :

كيف لا أعلم والحكاية تعرفها كل البلد ، ولا أعرفها أنا ؟

مد يده يسحب المقعد نحوى حتى التصق بى تماما . ألصق فمه بأذنى قائلا :

يسرقون أرضك كل ليلة ولا تعلم ؟

لفحنى الفحيح الساخن من فمه فأشحت بوجهى ، « يسرقون أرضى ؟ ! » استدرت نحوه مركزا تفكيرى فيما يقول وقد راح طوفان القلق داخلى يفيض محطما جسور لامبالاتى كاسحا أمامه هناءات السنين الطوال التى عشتها أنعم بحياة من صنعى .

أكتشف الآن ، وعيناى لا تفارقان فم عزازى ولسانه الذى لا يكف عن الحركة داخله ، ان هناك حياة أخرى تصطخب خارجى أسمع الآن هديرها يكاد يصم سمعى الذى عاش عمرا ينعم بالصمت النائم يتقلب فى الراحة لا يريد أن يفيق .

....

....

الكلاب .. يسرقون أرضى . هـه ؟ يجرؤون ؟ !

كنت أعلم ...

صرخت ..

أشحت بذراعى فى وجوههم . تراجـع عزازى للخلف مذعورا وهب الرجال واقفين وقد اتسعت عيونهم دهشة .

صحت وغضبى يفور :

ـ الأرض لا تسرق ، زهرتى البيضاء هى التى يريدون ، أعلم هـذا ، طمعهم قديم ، حكاه جدى لأبى ، وحكاه أبى لى ، زهرتى البيضـاء سر أسرارى وتراثى الذى لن ينالوه أبدا .. أبدا لن يصلوا اليه !

انطلقت أعـدو عابرا الطريق الذى أظلم الآن ومضيت أخوض فى ظلام الحقول .

داخل البيت ، درت أبحث عن سلاحى . جلست أمسحه فى عناية . بحثت عن علبـة الطلقات . وضعتها فى جيبى وقررت الانتظار حتى يتأخر الليل .

أطفأت المصباح وتسللت خارجا اتكىء على ساعد الليل وأغوص داخل الظلام الأعمى فى الخارج .

نعق الطائر الأسود الذى يسكن رأس دارى فى كل ليلة فأوغلت فى الظلام مبتعدا •

درت حول الأرض ، فى هـدوء حذر تقدمت صـوب الشجرة الكبيرة • أرحت البندقية الى جذعها الضخم • تحسست خشونته مطمئنا الى صلابتها ، أرهفت سمعى فلم أسمع سوى صفير الهواء، وخشخشـة أوراق الزرع من حولى ، حتى ند الصوت من بعيد • فتحت عينى على اتساعهما ثم ضيقتهما وقد ركزت كل حواسى نحو مصـدر الصوت • من بعيد لاحت ثلاثة أشباح سـوداء تتقدم فى حذر خائف وقد انحنت تغوص فى أرضى •

امتدت كفى الى البندقية ترفعها فى بطء أسندت كعبها الى كتفى وأحكمت التسديد وقد تحفز أصبعى فوق الزناد • حبست أنفاسى وانتظرت حتى اقتربوا •• عرفتهم •

هممت بسحب الزناد لكننى لم أجد أحدا أمامى ، أنزلت البندقية فى سرعة وقد استعر الغضب فى داخلى •

من مكمنى خرجت منطلقا أعدو تجاههم ، فتشت فى كل الأرض فلم أجد لهم أثرا • من خلفى سمعت الصـوت مرة أخرى فاستدرت مسرعا وقد أشهرت بندقيتى • جثوت فوق

الأرض ورحت أزحف نحو مصدر الصوت . قبعت فترة أرهف السمع لكننى لم أسمع شيئا . نعق الطـائر الأسود من بعيد مرة ثانية . كان صوته ممتلئا سخرية هذه المرة .

لملم الليل أطراف عباءته ومضى فرأيته فوق زاوية البناء قابعا فى مكانه .

سددت فوهة البندقية نحوه وضغطت على الزناد .

لعلعت الرصاصة تهتك السكون وقفز الطائر الأسـود فى الفضاء ، صفق بجناحيه العريضين مرتين ثم سقط يتخبط فوق الأرض فيما كان قرص الشمس الذى أطل من بعيد قد بدأ رحلة صعوده اليومية فى ثبات .

الصرخـــة

يدب الليل بقدمه الغليظـة فى حارات بلدنا فتنداح من تحتها دوائر الصمت تحمل معها طنين السكون الثقيل الذى يربض فوق صـدر القرية لا يفارقهـا حتى تسحب الشمس طرحتها السوداء كاشفة جبينها ورأسها مطلة بوجهها الصبوح من هنـاك حيث تأتى المراكب الكبيرة تحمل الصناديق الخشبية والرجـال الذين لا يكفون عن الغنـاء والتلويح لنا من عرض المـاء ..

....

....

انتبهت على صوت الصمت الذى حط على كل الأشـياء من حولى فجأة فأشرعت حواسى وجلست فى فراشى متيقظا تتسارع أنفاسى وقد بدا شىء من الاحساس بالرهبة يتسلل من مكان ما فى نفسى وينتشر داخلى •

هجعت البلدة واستولى عليها وخم النوم وصمت كل شىء حتى صفارة وابور طحين طه مرزوق الباكية دائما وأطفأ شعبان البقال مصباحه الوحيد المدلى فوق باب دكانه الخشبى الذى لوحته الشمس فامتلأ بالشقوق التى ظلت تطل من تحت الطلاء الكابى المكتوب عليه اسمه بحروف كبيرة فوق رسومات كادت تختفى لطائرة وسفينة وأصابع كف تتحدى عين الحسود••

لا أذكر بالتحديد أين ولا متى سمعت الخبر ••

كنت أمر من أمام دكان شعبان فى غبشة نهايات شمس العصارى الصفراء التى راح دفؤها يصافح وجوهنا مودعا قبل أن يسلمنا لأصابع الليل الباردة التى تمتد لتتحسس أجسامنا الدافئة على حين غفلة فننتفض وقد هزتنا اللسعة المفاجئة ونظل نتوقع متى تكون لسعتها التالية ••

أشرت لشعبان محييا فجاءنى صوته من الداخل مرحبا •• سمعت صوته من خلفى فتوقفت •• كان خلفى تماما •• سألنى ان كنت سمعت شيئا •• قبل أن أرد راح يحكى لى الحكاية

مائلا على أذنى بفمـه فأحسست بلفح أنفاسـه الساخنة يكاد يلتصق بوجهى فى حين ظلت عيناه ببياضهما المشوب بالحمرة تنفتحان وتنغلقان من وراء بعض الرموش القصيرة المبتلة وراح شاربه الذى خالطه المشيب يهتز فوق شفتيه الجافتين اللتين كان ينطلق من تحتهما بين لحظة وأخرى بعض رذاذ لعابه ..

أشحت بوجهى بعيدا لحظة ثم عاودت التطلع الى وجهه.. كان يشير الى أعلى .. هنـاك .. تابعت أصبعـه بعينى .. خفضها وتابع اشاراته نحو عدد من البيوت مؤكدا ان هنـاك من رآه فى الليل تحت ضـوء القمر وراح يعد على أصابعه بعض الاسماء .. قال وهو ينصرف انه كان يظن اننى أعرف شيئا .. هززت رأسى فتركنى وانصرف عائدا الى دكانه ..

....

....

فى بلدنا يمضغ الناس الثرثرة مع الطعام .. تلوكها النساء فى قعداتهن أمام أبواب البيوت فى الحارات المظلمة الا من ضوء فانوس بعيد يجتمع الأطفال تحته يمارسون لعبة البراءة قصيرة العمـر ..

ويزفر الرجال وجهات نظرهم مع دخـان المعسـل حول « راكية » النار على حواف الحقول أو خلف جدران المقهى

الوحيد عند مدخل البلد •• يشيحون بأيديهم متحمسين •• يبعثرون آراءهم على رخام المناضد المتسخة ويجمعونها معتنقين الفكرة ونقيضها فى ذات الوقت •

جلست استمع صامتا وعيناى لا تفارقان مدخل البلد وأضواء السيارات العابرة تطوف بجدران المقهى تلقى ضوءها المبهر تلفح وجوهنا لحظات ثم تختفى بعيدا تاركة خلفها الظلام وأسئلة لا تجد الاجابة ••

نهضت اتمطى وأفرد قامتى •• دسست كفى فى جيبى وأشرت للمليجى عامل المقهى ليستلم حسابه •• ظلت العيون معلقة بوجهى صامتة •• أشرت للرجال محييا فارتفعت أصواتهم ترد التحية •• استدرت اغادر المقهى فعادت دمدمات أصواتهم تستأنف قرقعتها بينما كنت أخوض فى ظلام الطريق تطوف برأسى صور شتى لما يمكن أن يكون قد حدث مما قد يعرفونه أو يجهلونه •• ورحت استرجع شيئا من كلامهم أضيفه الى كلام شعبان وأحاول أن أعيد ترتيب الحكاية كلها فى رأسى ••

•••••••••••

•••••••••••

ينطفىء فى كل ليلة مصباح دكان شعبان فينسحب النور

من غرفتى وأظل متيقظا فى الظـلام استرجع كلامه وأفكر فى الخروج لأتحرى الأمر بنفسى ..

عند عودتى سمعت الصوت يأتى من خلف الشجر الذى بدا فى صمته تحت الضـوء الواهن كعجـائز يتهامسن دون صـوت مكتفيات بالاشـارات الغامضة يتبادلنها بينهن دونما كلام .. وراح الظلام المتكاثف من تحت الأشجار يمتد فوق جزء كبير من النهر الذى لم تتوقف صفحته عن الارتعاش كلما هبت من فوقها نسمة هواء ..

تكررت الصرخة فانخلع قلبى .. وأحسست مسام جلدى تنغلق والبرودة تنتشر فى كل جسمى ..

تلفت حولى فى بطء ثم مضيت وقد تسارعت خطواتى صوب البلد وعيناى لا تفارقان ضـوء وناسة الشيخ زيدان الساهرة فى كوتها تتشاغل بالرقص مع الهواء تشغل فراغ الوقت منتظرة أذان الفجر حتى يطفئها الشيخ بنفسه عند خروجـه للصـلاة ..

عند عودتى فى الظهر كان ثمة كلام عن وصول عربة شرطة من المركز تحمل ضـابطا وعـددا من العسـاكر رأيت بعضهم يشترى سجائره من دكان شعبان الذى راح وهو يسلمنى علبة

السالمون يحكى لى عن جثة البنت البيضاء التى وجدوها قريبا من شاطىء النهر خلف الأشجار .

مال شعبان بجسمه خلفى وهو يقول بصوت مرتفع انها ليست من بلدنا والحمد لله .. فانزاح هم كالحجر من فوق قلبى .. وجاءت أخبار التحقيق الذى كنا نتابعه فى الدوائر القريبة من رجال نقطة البلد ومع بعض رجالنا المترددين على المركز تقول انهم لم يعثروا للآن على خيط واحد يلقى ضوءا على الجريمة أو يوصلهم للفاعل فسرت فى البلد اشاعة كالحريق تؤكد وجود علاقة بين القتيلة وواحد من شبان القرية (لم يذكره أحد بالاسم) الذين يدرسون فى البندر .. وألمحت بعض غمزات العيون الى الفضيحة التى كان لابد من كتمانها ولو بالخنق خلف الشجر .. وشاع كلام يقول ان البنت من بلدنا وان أهلها يفسرون غيابها بسفرها للعلاج فى مصر .. وراح البعض يحاول أن يتذكر دون جدوى تلك التى سافرت للعلاج فى مصر حتى اشتعلت تلك المشاجرة فى المساء على المقهى بين عباس وجنيدى عندما انتفض عباس يسخر من تفسيرات جنيدى حول حادث البنت .. قمنا نفض المشاجرة وانتهى الأمر باصرار كل منهما على رأيه وتشيع بعض الحاضرين لرأى كل منهما فدفعت حسابى وانصرفت ..

....

....

فى الصباح كنت فى القطار ..

طويت الجريدة عندما سمعت صفارة ناظر المحطة والتفت أطل من النافذة للمرة الأخيرة فوجدتها أمامى ..

كانت هى ..

وجهها الأبيض الذى ما أزال أذكره يكاد يلامس وجهى وأنفاسها تندفع حارة تلهث أكاد أسمع صوتها .. وعيناها .. نفس العينين تتطلعان الى وجهى متوسلتين وشبح ابتسامة واهنة مرتبكة ترجونى أن آخذها معى حيث أذهب ..

كان القطار قد بدأ يتحرك فأسرعت خطواتها الى جوار العربة وقد مدت أصابعها البيضاء الطويلة تتشبث بحديد النافذة تدعونى أن أسمح لها بالصعود لتسافر معى .. قالت فى كلمات سريعة انها لا تريد أن تبقى فى البلد وأنها ..

كالمذهول وقفت أمام النافذة لا أصدق ما أراه .. لم تترك لى فرصة لسؤالها عن خبر وفاتها الذى ..

قالت انها ستحكى لى عن كل شىء لو اننى فقط وافقت على سفرها معى ..

أسرع القطار فتعلقت بكلتا يديها فى حافة النافذة ..

تعالت صرخاتها فأطلت بعض الوجوه من النافذ وأسرعت

أنا أبتعد عن النافذة محــاذرا أن يلمحنى مخلوق من أهل البلد فأصبح موضوعا لاشاعة جديدة ..

شهقت امرأة فجأة وتعالت صرخات باقى النسوة داخل العربة وطنت فى أذنى أصــوات الرجال مختلطة بصوت صرخة بعيدة صحبها صوت ارتطام جسم انسان بأحد أعمدة الاشــارة فالتفت أتابع المشهد وأنفاسى تتلاحق ..

كان بعض جسمها يلوح على البعد من بين أعواد البوص الممتدة بطول الشريط والتى راحت تنسحب الى الخلف مسرعة حتى انتهت تماما فلم يبق من المشــهد سوى صــورة بعيدة لبعض البيوت الساكنة تحف بها بعض الأشجار الصامتة فى حين راحت تدور فوق المشهد بعض الحمامات التى راحت تبحث عن مكان لها فوق البيوت تحط عليه بعد طيرانها الطويل ..

ذلك الليل الطويل ..

ست الحسن أمى .. وأبى سبع الليـل الجـالس على المصطبة تحت شمس الصبح الطالع أمام الدار يبربش بعينيـه سعيدا بالضوء ..

ركضت بعيدا عند سماع أول نداء من أمى ..

تسلقت شجرة التوت القريبـة من شاطىء الترعة ولبثت بين فروعها أرقب باب دأرنا ..

أخرجت أمى الطست النحاس الكبير وحلة الطبخ السوداء الواسعة وبعض الصحون المعدنيـة .. قرفصت على الأرض

بجوار ساقى أبى المدلاتين بلا حركة وراحت تدعك •• رفعت رأسها بعد فترة ونادت اسمى •• لكننى لم أرد ••

استدارت الشمس فسحبت جزءا من نورها معها •• التفت أبى ناحية أمى ونظر اليها •• نهضت تمسح كفيها فى طرف ثوبها الأسود ثم دفعت ذراعيها تحت ابطيـه وراحت تجرجره نحو مساحة الشمس التى ما زالت تفرش نفسها فوق المصطبة ••

سعل أبى بخشونة ثم بصق •• وعادت أمى تواصـل دعك الأوانى ••

قال أبى وهو يقاوم النعاس :

ـ الشاى يا حسن •• الشاى ••

ردت أمى نافدة الصبر :

ـ الأكل قبله ••

قال أبى مستسلما :

ـ آكـل ••

غابت أمى داخل الدار •• وتصاعد دخان طبخها ••

هبطت من فوق الشجرة ودخلت الدار أعدو ••

فتح أبى عينيه يتابعنى ثم أغمضهما من جديد ••

من الداخل سمعت صوت عبد الجبار يكلم أبى ..

أطللت برأسى الحليق من عتمة المدخل ورحت أتابع الكلام مستندا على عارضة الباب الخشبى ..

قال عبد الجبار وهو يفسح لنفسه مكانا الى جوار أبى :

ـ ما تشد حيلك يا سبع أمال ..

رد أبى دون أن يلتفت اليه :

ـ نحمده على كل حال يا سى عبد الجبار .

دس عبد الجبار كفه الغليظة فى جيب صـــدريته وأخرج علبة سجائره ..

مد يده بسيجارة منها نحو أبى وقال ساخرا :

ـ خد .. عفر يا سبع ..

خرجت أمى مندفعة ووقفت قبالته متحدية وقالت بحدة :

ـ سيب الراجل فى حاله يا عبد الجبار ..

نهض عبد الجبار متثاقلا وقـــال وهو ينظر لأمى نظرة طويلة :

ـ آنى قلبى عليه .. بأضحك معاه ..

ردت أمى وأنفاسها تتسارع :

ـ مالكش دعوة بيه ..

أعاد عبد الجبار علبته الى جيبه وقال وهو ينصرف :

ـ بخاطرك يا حسن .. بخاطرك ..

اندفعت خارجا أقف الى جوار أمى .. مددت أصابعى أتشبث بثوبها فوضعت كفها فوق كتفى .. استدارت أمى تدفعنى أمامها الى الداخل لكننى انفلت من بين يديها ووثبت فوق المصطبة الى جوار أبى الذى مد ذراعه يضمنى ..

التفتت أمى نحونا وقالت قبل أن تدخل :

ـ حسك عينك يا سبع تاخد م الراجل ده أيها حاجة .. فاهم ؟

هز أبى رأسه صامتا ونكس بصره الى الأرض ..

خرجت أمى بعد قليل تحمل صينية الطعام ووضعتها بيننا ووقفت تقطع الخبز وتكور اللقم ثم تغمسها فى الصحن وتدفعها الى أبى الذى راح يمضغ صامتا فى بطء .. فى حين راحت العتمة تزحف على كل شىء حولنا ..

كنت أحب حكايات أبى ..

أسرح بخيالى معها فيما ينهمر صوته من حولى يحكى عن

الأرض والرجـال والسراى فى آخر الزمام وصاحبها الكبير ورجاله الكثيرين ..

وأزحف بجسمى الصغير داخلا فى حضنه مستدفئا تحت ذراعه مغمضا عينى حتى يحملنى النوم بعيدا ..

قال أبى ذات يوم وهو ينظر فى عينى :

ــ تحب أبوك يا وله ؟ !

هززت رأسى :

ــ وراجل زيه ؟ !

ضغط على كتفى بقــوة لكنى لم أصرخ رغـم وخـز أصابعـه ..

قال وهو يثبت عينيه فى عينى :

تعرف تروح تربة ستك .. أمى ؟

فتحت عينى على آخرهما ..

ــ تحفر تحت الشجرة اللى وراها وتجيب اللى تلاقيه..

طافت برأسى خيالات عفاريت الجبانة ودق قلبى بعنف ..

غاص سؤاله كالنصل فى قلبى ..

ــ خــايف ؟

هززت رأسي خجلا :

أشاح بوجهه بعيدا ..

قال بصوت يلله الألم :

ــ لو بصحتي كنت رحت ..

امتلأ قلبي غما ..

تمالكت نفسي وقلت :

ــ ح أروح يابا ..

استدار نحوى وبرقت عيناه وهو يقول :

ــ والقمرة طالعة يا وله .. فاهم ؟

هززت رأسي ..

أردف محذرا :

ــ أوعى أمك تعرف حاجة ..

هززت رأسي نفيا ..

مال برأسه يهمس في أذني :

ــ وتحطها لى تحت المقعد بره .. قدام الدار .. ياللا ..

....

كنت أسرع العدائين في ذلك اليوم ..

ركضت بطول الطريق بجوار غيط البحاروة وأرض ملكة ثم درت حول زاوية المصلى وهبطت الى جوار الجسر عائدا من منتصف البلد حتى وصلت أول المتسابقين الهث فارتميت تحت ظل شجرة التوت قريبـا من دارنا وعيون البنات ترمقنى فى اعجاب ألتذ به كثيرا وان تظاهرت بعد الاكتراث ..

بدأ باقى الأولاد يصـلون من بعدى حتى اكتملت حلقتهم من حولى وراحت دوائر الثرثرة تدور فيما كان الأصيل يكشح أمامه صهد النهار مفسحا لنسمات العصر مجـالا تتنفس فيه حولنـا ..

قال أطول الأولاد :

ـ هو عبد الجبار قريبكم بحق ؟

قلت نافيـا :

ـ لأ .. موش قريبنا ..

أضـاف آخر :

ـ أمال يعنى حداكو كل يوم !!

قلت ومازلت لا أفهم :

ـ هو اللى بيجى ..

سـأل آخر :

ـ وأخوك اللى فى مصر يعرف انه بييجى ؟

أجبت :

ـ أخويا ماشافوش حدانا .

سمعت صوتا من خلفى يسأل :

ـ ولا مرة ؟ !

قلت دون أن استدير :

ـ ولا مرة ..

كان الظلام قد بدأ يقترب وراح الأولاد يتأهبون للعودة.. قلت ومازالت بى رغبة للمواصلة :

ـ موش ح نكمل ؟

رد أكثر من صوت :

ـ لأ ..

وراحوا ينصرفون مبتعدين فسقط قلبى داخلى من الخوف وأسرعت خطوى خلفهم ..

سألت أبى عن عبد الجبار ..

رفع الى عينين لا أعرفهما ..

قال بعد صمت طويل :

ـ أما تجيب اللى قلت لك عليه أبقى أقول لك ..

أسرعت أركض خارجا ميمما شطر المقابر مخترقا الحقول الغارقة فى سواد الليل وصوت اصطفاق جلبابى خلفى يملأ قلبى رعبا فازداد سرعة ويزداد جفاف لسانى داخل حلقى ..

فى ضوء القمر جلست أحفر والعرق البارد يبلل كل جسمى حتى عثرت أصابعى بالجسم المعدنى الملفوف فى القماش .. رفعته من الأرض فى سرعة ورحت أتحسسه بأصابعى ثم حملته وعدت أركض عائدا وهواء الليل البارد يلفح وجهى المشتعل بالخوف واللهفة ..

....

من فوق سطح الدار سمعت صوت أخى الغاضب عاليا .. ملت بجسمى أنظر ..

كان أبى ما يزال جالسا فوق المصطبة أمام الدار وقد التفت برأسه مائلا بجذعه نحو الباب يتابع ما يدور فى الداخل..

خرج أخى مندفعا وخلفه أمى تحاول اللحاق به .. أسرعت وراءه تحاول أن توقفه فدفعها عنه ومضى يخوض فى بركة الماء المتخلفة من مطر الأمس ..

رأيت أمى تسقط فى الماء خلفه فتسلقت هابطا على جذع الشجرة فوق رأس أبى ووثبت نحو أخى لنسقط معا فى الطين ..

نهض أخى ينفض الوحــل والمــاء من ثيابه وشــعرت بصفعته قوية تلسع وجهى ..

ألقت أمى بجسدها فوقى بينما انطلق أخى مبتعدا ..

زحفت فى الوحل مخلصا نفسى من تحتها .. وغصت بكفى فى الطــين أكور منه كرة كبيرة طوحتهــا خلفــه صارخا بأقصى ما استطعت ..

ـ لو جيت هنا تانى ح أقتلك يا جبان .. !!

التفت أنظر ناحية أبى ..

كان قد سقط بكل جسمه فوق حافة المصطبة يحــاول النهوض .. عــدوت نحوه أمنعه من الســقوط الى الأرض وأسرعت أمى ترفعه وهو يدفع بيديه فى الهواء حتى أجلســته وسوت فوقه غطاءه كما كان ..

جلست على الأرض لاهثا أنظر اليه .. وخيل الى اللحظة أننى استطعت أن أرى رغم الضــوء القليل آثار دموع تبلل عينيــه ..

....

كان الليل قد سكن .. وصمتت حتى أصوات الضفادع وجنادب الأرض وانقطع نباح الكلاب ولم يتحرك الهواء ..

لبثت فى مكمنى بين فروع شجرة التوت أرقب ظل أمى خلف النافذة حتى غاب وانطفأ من بعده سراج القاعة ..

مرت فترة طويلة من السكون حتى سمعت حفيف ملابسه ورأيته من خلال الظلام يسير فوق أطراف أصابعه متقدما الى حيث كان يجلس أبى فأسرعت أنفاسى ..

توقف تحت الشـجرة بعض الوقت .. ثم تقدم خطوتين ووقف فى الظـلام ساكنـا فترة عـاد بعدها الى مكانه تحت الشجرة فلم أتمكن من رؤيته .. حبست أنفاسى .. وسمعت خشخشة ملابسه تتكسر فخمنت أنه قد جلس فى مكانه وعينيه لا تفارقان الدار .. نهض بعد فترة وسار محاذيا شاطىء الترعة فهبطت من فوق الشجرة ودرت أختبىء خلفها ..

من نافذة الدار أطل خيال ظننته أبى ..

عادت أقدامه المتلصصة تقترب من جديد ..

أحنيت رأسى وانطلقت فى الظلام مندفعا نحوه كالقذيفة لأهوى به فى ماء الترعة الساكن فيما أنا أرى الوميض الذى اشتعل فجأة وأسمع فرقعة العيار النارى الذى انطلق يهتك صمت ذلك الليل الطويل .

الأطفال يلعبون فى الحديقة

يتسلى الظل فى هذه الفترة من النهـار بتسلق جدار منزل الريس طنطاوى • كعنكبوت ضخم يظل يزحف صاعدا يرتقى قوالب الطوب الأحمر الذى كتبنا أسماءنا فوقه بقطع الطباشير البيضاء • أرقب بقلب مبهور مخالبه الدقيقـة تنهش حروف الأسماء حتى تغيب داخله لكنه لا يكف عن التقدم مقتربا من اسم حاتم ــ أطولنا ــ المكتوب فوق أسـمائنا ، أتعجله أن يلتهمه أيضا حين تلوح من عند رأس الشـارع سـيارة عمى السوداء اللامعة ، تدور مع المنحنى لتقف أمام دكان عم مرزوق البقال •• هناك عند الناصية ••

أميل ، فأرى عمى يهبط منها ، يغيب جزء من جسـمه الضـخم خلف اعـلان الكوكاكولا وبعض المكانس وأدوات المطبخ ، لكنه يعود ليطل ملوحا لى من بعيد بورقة الشيكولاتة الملونة فانسحب من النافذة لأقفز داخل غرفة المسافرين منطلقا فى البيت أمـلأه زياطا ، وأدور بين الغرف أصيح معلنـا خبر قدومه ، وأعود لأتسلق الأريكة مائلا بنصف جسمى خـارج النافذة أشاهد عربته وهى تستقر تحت نافذتنا وقد راح الأولاد يغمسون كسلهم بالدهشـة بينما هم يتجمعون حولها يرقبون حديدها اللامع وزجاجها الذى انعكست عليه ألوان قطع الغسيل المتأرجحة فوق حبال آخر النهـار ، ويشيرون الى عجلاتها التى تترك خلفها دائما نقوشـا متعرجة كثعابين صغيرة تزحف فوق أرض الشارع المرشوشة دائما فى تلك الفترة من النهار ..

وقف أبى بجلبابه الأبيض فى فتحة الباب الحديدى الكبير فاتحا ذراعيه . درت بسرعة أهبط الدرجات القليلة الى الباب لأقف خلف أبى تماما . حملنى عمى بين ذراعيـه ومضى يصعد الدرجات الى جوار أبى وهما يثرثران .. تقدم أبى يفتح باب غرفة المسافرين .. أنزلنى عمى وهو يهمس فى أذنى « اطلب لنا قهوة » فانطلق الى أمى أطلب القهوة وأعود بسرعة ..

تحت النافذة المطلة على الشـارع جلس عمى فوق نفس الأريكة التى يجلس عليها كلما جاء . أسند ذراعه الى الوسادة

الصغيرة التى تفصله عن أبى . دس يده الثانيـة فى جيب سترته الداخلى وأخرج ورقة الشيكولاتة مشـيرا بها نحوى فتركت مكانى عند الباب وأسرعت ألتقطها منه . ربت فوق كتفى ثم أخرج منديله الكبير الممتلىء دائما بالبقع الصفراء الكبيرة وراح يمسح فوق رأسه ووجهه فانتشرت حولى رائحة سعوطة التى أحبها .. طوى المنديل وألقاه الى جواره وراح يفتش فى جيوبه عن علبة السعوط المعدنية المستديرة ..

خلف زجاج البـاب المنقوش بأوراق النباتات المدببـة الغائرة بان خيال أمى تحمل صينية القهوة النحاسية الكبيرة . بعينى رحت أتحسس أنصاف الدوائر المتصـلة حول محيطها وألاحظ مجمع البن والسكر وموقد السبرتو وفناجين القهوة وأطباقها البيضاء الصغيرة وكوب المـاء البارد الكبير فوقها ..

قام أبى وذهب خلف الباب . وقف برهة يتحدث الى أمى همسا . ابتعد ظل أمى عن الزجـاج فأنزل عمى عينيـه وراح يسألنى عما أفعله الآن ..

قلت مباهيا اننى أرسم . قال عمى :

ـ عظيم .. وماذا ترسم ؟

قلت ان الأستاذ أعطانا درسا نرسمه عن الأطفال الذين يلعبون فى الحديقة ..

هز عمى رأسه شاردا وراح يغمغم :

ـ عظيم .. عظيم ..

عاد أبى حاملا صينية القهوة ووضعها فوق الوسادة بينه وبين عمى وقال من خلف ابتسامة بدت لى غريبة ان أمى كانت فقط تسأل عن بعض الأشياء الخاصة ..

قال عمى وهو يفتح مجمع البن دون أن يلتفت اليه :

ـ مفهوم .. مفهوم .

فتحت كراسة الرسـم فوق المساحة الخالية الى جوار عمى ، ورحت أرسم الأشجار فيما كان عمى يشرح لأبى بحماس ككل مرة كيف تصنع القهوة الجيدة على نار هادئة بينما هو يقلب المـاء برفق فوق النار ..

أخرج عمى من جيبه ورقة مطوية فردها أمامه وراح يتطلع اليها . قلبها بين يديه ثم راح يعدل الفناجين المقلوبة فوق أطباقها ليصب القهوة ، ناول أبى فنجانه ثم ناوله الورقة ليقرأها بينما راح يرشف من فنجانه ببطء .. نظر أبى الى الورقة طويلا .. قلبها بين أصابعه ثم أعادها اليه ..

أخرجت ورقة الشيكولاتة من جيبى ورحت أتأمل شكل الغزال المرسـوم عليهـا وأدور بأصبعى فوق ظهره ثم أرفـع

الورقة الى وجهى أتحسس نعومتها وأدفع قطعة الشيكولاتة الملفوفة داخل الورقة الفضية اللامعة الى الخارج لأنظر اليها ثم أعيدها الى مكانها بسرعة ..

قال أبى وهو يهز رأسه :

ـ طيب ، فأخرج عمى رزمة من النقود المطوية فردها بين يديه وراح يعدها ثم ناولها لأبى الذى كان قد أخرج حافظته فى تلك اللحظة وراح يضع أوراق النقود فيها ..

تركت كراسة الرسم واقتربت من أبى أتأمل شكل النقود برسومها الغريبة .. كان أبى يضع الأوراق الكبيرة معا ثم يجمع الأوراق الصغيرة الى جوارها بادئا دائما بالورق الجديد. ملت بوجهى أتشمم رائحة النقود فدفعنى أبى بعيدا فترنحت للخلف لأسقط بين يدى عمى الذى كان قد انتهى من رشف قهوته الآن ..

نظر عمى نظرة عتاب طويلة الى أبى الذى أطرق بوجهه الى الأرض ..

قال أبى بعد فترة ان « الهانم » كانت تريد أن تكلمه .. « خيرا » قال عمى ، فرد أبى بعد تردد « خيرا .. » .. وأضاف بعد صمت « انها فقط مسألة المصاريف التى .. أنت فاهم .. » ..

أخرج عمى الورقة من جديد وراح يشير الى الأرقام المكتوبة فيها ويرسم خطوطا تحتها بالقلم فى يده وأبى يتابعه وهو يهز رأسه قائلا بصوت خفيض « مفهوم •• مفهوم •• لكنها •• » •• قاطعه عمى « فيما بعد •• » •• ونهض واقفا فنهض أبى •• عاودتنى فى تلك اللحظة نوبة السعال التى كانت تأتينى كل مساء فالتفت عمى نحوى وقد اتسعت عيناه بشدة • قال وهو يشير نحوى « الولد يسعل » قال أبى بقليل اكتراث « فى المساء فقط ! • » وأضاف موضحا « قبل أن ينام •• كل ليلة » •• مسحت أنفى وفمى بظاهر كفى وملت من جديد فوق الكراسة وقد انشغلت فى رسم الأطفال الذين يلعبون ••

قال عمى مؤنبا « ولماذا لا تغلون له ورق الجوافة ؟ »•• صحت وأنا أقذف بالقلم فوق الأريكة « لست أحب ورق الجوافة •• أكرهه لأنه مر » ••

مال عمى يحيطنى بذراعه وقال بصوت هادىء « كانت أمنا تغلى لنا ورق الجوافة » •• ثم التفت الى أبى الذى كان يقف تلك اللحظة تحت مصباح الكهرباء العارى تماما فى منتصف الغرفة « ضع له بعض السكر فيها » ••

هز أبى رأسه موافقا ••

بان خيال أمي من جديد خلف الزجاج المنقوش فسمعتها تقول « ولمـاذا لا يذهب الولد الى الطبيب ؟ » ..

قال عمي وهو يقف « الأطبـاء لا يعرفون شيئا هـذه الأيام .. » .. ثم حاول الابتسام ..

واصلت أمي بصوت بدا جافا غير ودود « ولمـاذا يذهب ابنك الى الطبيب .. هه ؟ » ..

قال عمي بصوت مخطوف وهو ينظر تجـاه أبي « انهـا أخته كما تعلم .. هي عنيدة ولا تسمع لأحد رأيا .. ونحن نوافقها .. أنت فاهم طبعا !! » ..

هز أبي رأسه من جديد وقد بدا عليه فيما لاح لي شيء من التأثر .. مددت يدي أجـذب سترة عمي الذي التفت نحوي • قلت : « ارسم لي شجرة جوافة » ..

قال عمي وهو يزيح كفي بعيدا « انهـا شـجرة كأي شجرة .. الفرق في الأوراق فقط وهذا لا يهم » ..

قلت في اصرار وقـد بدأت أحس بالضيق في صـدري « ارسم لي شجرة جوافة الآن » ..

قال أبي يزجرني « عمك مشغول .. سيسافر الآن .. » ..

رحت في نزق أضرب بالقلم فوق الصفحة في كل اتجـاه مشوها ما رسمت ..

قال عمى موبخا « اذا فعلت هـذا مرة ثانية لن أحضر لك معى شيكولاتة بعد ذلك » ..

أخرجت ورقة الشيكولاتة من جيبى وطوحتها فى ركن الغرفة قائلا وعيناى فى الأرض « لست أحب الشيكولاتة .. خذها .. أعطها لابنك » ..

صاح أبى « ولد ! » ..

قال عمى « دعه » .

ثم استدار ناحية باب الخروج ..

قالت أمى من خلف الزجاج « فى المرة القادمة عندما تأتى .. تأتى بالحساب كاملا .. من فضلك » ..

التفت عمى ناحية أبى وما زالت كفه على مقبض الباب .. نظر اليه نظرة صامتة ثم سحب الباب وخرج فهممت بالاندفاع خلفه لولا ذراع أبى التى أوقفتنى .. تراجعت منسحبا للخلف فى بطء ثم انطلقت أتسلق الأريكة ، رافعا خشب النافذة بأقصى ما أستطيع مائلا بجسمى للخارج أتطلع الى العربة مترقبا خروج عمى من الباب الحديدى الكبير ..

كانت مساحة الضوء المنهمر من النافذة تفرش الآن مستطيلا يسقط فوق العربة ويقطع عرض الشارع متسعا عند

نهايته فوق الجدار المواجه فتبدو أسماؤنا تحته كحشرات نائمة أفزعها الضوء الذى سقط عليها فجأة . انحنيت بجسمى مستديرا تجاه الباب . كان عمى يقف هناك فى الظلام مستندا بكفه العريضة فوق زاوية الحائط وقد مال بجسمه كله للأمام وراح يفرغ ما فى جوفه بصوت مكتوم . بعد قليل توقف ثم أخرج منديله الكبير ومسح فمه ثم كوره وأعاده الى جيبه ..

بدا جسمه واضحا وهو يترك مكانه فى الظلام مقتربا من العربة . توقف قبالة النافذة لحظة ثم رفع رأسه نحوى قبل أن يغيب داخل العربة فاستطعت أن ألمح تحت النور شيئا فى عينيه يلمع ..

عينــان .. واســعتان !

من فوق رآه ..

مد الولد الكبير يده وخطف « الكاسكيت » الجديدة وانطلق هاربا ..

من فوق أراد أن يقفز .. الارتفــاع يخيفــه .. كره الأرجوحة الدوارة فى تلك اللحظة واستعجل نزولها ..

عيناه لا تفارقان الولد الكبير الهــارب وسط زحــام ألوان الملابس والعربات وزياط البنــات والباعة وكل صخب العيــد ..

هبطت الأرجوحة فانطلق يركض في الاتجاه الذى حدده.. تغير في عينيه شكل المكان .. زحام الأجسام من حوله يعوقه .. اختلطت الصور وتداخلت فتاه وجه الولد الكبير من ذاكرته ..

دفع قرشا ثانيا وركب الأرجوحة واستعجل صعودها .. أدار عينيه يمسح المشهد .. عثر على الولد الكبير عند ناصية البيت الأصفر العالى ذى الشرفات الواسعة والنساء المطلات من فوق .. صدورهن العارية ثقيلة تكاد تسقط من فوق السور الحديدى ذى الزخارف الواسعة .. أغمض عينيه حتى لا تضيع الصورة من ذاكرته .. استعجل هبوط الأرجوحة .. قفز منها وانطلق صوب البيت الأصفر والولد الكبير .. اندفع نحوه يدفعه في صدره ويخطف « الكاسكيت » من يده ..

على ظهره سقط الولد الكبير .. اتسعت دائرة من حولهما .. زحف الولد على مقعدته في التراب متراجعا .. التفت يلتقط حجرا ثم وثب .. مال للخلف مصوبا الحجر نحوه .. انحنى يخفى عينيه بكفيه .. سمع ارتطام الحجر من خلفه .. استدار .. كان بائع الترمس الذى أتى مهرولا يحمل القلة المكسورة في يده متوعدا يطارد الولد الكبير الذى اندفع يتخفى مندسا وسط الزحام ..

استدار عائدا وقد استماتت أصابعه على « الكاسكيت » ..

خلف الأرجوحة وجده برأسه الحليقة ما يزال يبكى .. وضع « الكاسكيت » فوق رأسه العارى ثم رفع كفه وأهوى بها فوق وجهه ..

سكت بكاء الصغير ومضى خلفه دون كلمة ..

استدار يرفع أصبعه فى وجهه مهددا « لن تحكى كلمة مما حدث ! » ..

هز الصغير رأسه موافقا ..

....

....

وحده يعرف الطريق وكل السكك ..

سخونة تراب الحارات الراقدة تتمطى تحت وقدة شمس ذلك النهار تتسلل الى قدميه .

اخترم غيط صفية ودخل من فتحة حديد سور سوق الجمال ومضى وسط صفوفها المجترة مبتعدا عن رءوسها الكبيرة وعيونها نصف النائمة محاذرا أن يلوث الروث حذاءه الجديد ..

من خلفه مضى الصغير مطأطئا وقد وضع كفه فوق « الكاسكيت » يسير صامتا ..

من فتحة السور خرجا ..

أمسك كف الصغير يعبر به شريط القطار محاذيا ضفة الترعة الممتلئة بالمياه اللامعة وأرض المولد وعزبة الصعايدة ببيوتها القصيرة .. انحنى مع زاوية بقالة عاشور وولده المغلقة والمعمل والفرن الكبير حتى دكان بشاى العلاف .. عندها يعرف أن البيت قد اقترب ويحس الونس ..

أطلق كف الصغير ومضى وئيدا يقترب من البيت ونافذته نصف المفتوحة التى يعلم أن أمه لابد تجلس تحتها الآن تنتظر عودة أبيه ..

قال لأمه مشيرا بأصبعه نحوها انه لا يحب هذا العيد ولا يريده لأنه ملىء باللصوص ..

نظرت الأم الى عينى الصغير المحمرتين ثم التفتت نحوه .. مدت ذراعيها تضمه .. لانت نظرته وأنزل ذراعه مستجيبا لحضنها ..

وضع رأسه فوق صدرها وراح يبكى دون صوت بينما كانت عيناه تراقبان الصغير الذى وقف واسع العينين يتابع صامتا ما يحدث !!

بعد البكاء

كانت ليلة ككل الليالى ..

لكننى عندما استيقظت فى الصباح لم أجد أحدا ..

ناديت فى البداية بصوت منخفض .. رفعت صوتى قليلا بعد ذلك .. نهضت وفتحت باب الغرفة فى حذر .. مددت رأسى خارج الغرفة وناديت ..

كان الخوف قد بدأ يتسلل داخلى .. وراح الشك يزحف فى عروقى بطيئا .. بطيئا فى البداية .. خطوت خارج الباب خطوة ثم توقفت .. تلفت حولى .. ناديت فلم يخرج

صوتى •• تنحنحت وناديت مرة ثانيــة فخرج صوتى مبحوحا مرتعشــا •• خطوت خطوة ثانيــة وثالثة •• ترددت قليلا ثم دخلت غرفته •• كانت معتمة بعض الشىء •• لم يكن ضــوء النهار قد اقتحمها بعد كعادته كل يوم •• كانت الســاعة قد جاوزت التاسعة ببضع دقائق ولم تكن الشمس تدخل الغرفة قبل الحادية عشرة فضغطت زر الكهرباء ••

كان دولاب الملابس فى مكانه وكذلك السرير والمقعدان والمشجب خلف الباب •• نفس ملابس الأمس معلقة عليه •• ثلاثة قمصان أحدهم ملون تزينــه بعض الرســومات وريش الطيور وبنطلون رمادى وحزام من الجلد الأسود ••

سحبت البــاب وخرجت الى الحمــام •• أضأت النور واقتربت بوجهى من المرآة فوق الحوض •• نظرت •• حركت وجهى يمينا ويسارا •• كانت عيناى منتفختين قليلا لا أدرى من أثر النوم أم السهر فى حين بدا شعرى مهوشــا وخفيفا •• فردت أصابعى ورحت أمررها فوقه أسويه •• فتحت عينى قدر استطاعتى وقلبت جفونى أحدق فيهما •• كانتا محمرتين وشعرت بهما تؤلمــانى •• أغمضت عينى بعض الوقت ثم فتحتهما مرة ثانية فأحسست بدوار خفيف وتذكرت ليلة الأمس ••

كنت على غير عادتى قد أسرفت فى الشراب ••

بعد البيرة طلبت كأسا من البراندى ..

نظر الى مستغربا فأكدت الطلب .. أما هى فكانت تجلس قبالتى تماما فى حين كان يجلس هو بيننا .. تقريبا بيننا .. غمز لها بعينه وأشار نحوى .. رفعت الكأس متحديا وشربته دفعة واحدة .. فتحت عينيها دهشة ثم رفعت كوب البيرة فى يدها .. شيريو .. أنزلت كأسى .. شيريو .. بينما راح يضحك فى جنون وينظر اليها فتضحك .. نظرت اليهما وضحكت فضحكنا .. توقفنا عن الضحك فجأة ثم تبادلنا النظر فانفجرنا فى الضحك من جديد ..

أشرت للجرسون أطلب كأسا أخرى فرفعت أصبعها محذرة .. رفعت يدى فى مواجهتها وأشرت للجرسون فانصرف يحضر الكأس ..

قالت « أنت الليلة تشرب كثيرا » ..

قال هو « ككل ليلة » ..

قالت « كل ليلة لا يشرب بهذا الشكل » ..

قال « وهو كذلك » ورفع كأسه فرفعت كأسى وابتسمت .. لاحظت أنها كانت تضحك كثيرا .. قلت ورأسى يدور :

« أنت الليلة جميلة جدا » ..

« مرمى » ..

قال « أنت سخيف .. هى كل ليلة جميلة » ..

قلت « اسكت .. أنت لا تفهم شيئا » أضفت وقد أحسست بها قريبة منى لأول مرة « لم أرك تضحكين كما تضحكين اليوم .. كنت دائما متجهمة .. لماذا هه ؟ » ..

قالت « أنت لم تعرفنى .. هذا كل ما فى الأمر .. أنت لم تعرفنى » ..

انتبهت على قهقهته .. أدرت رأسى أنظر للناس من حولى .. على احدى الموائد خلفنا لمحت وجها شدتنى ضحكته المفاجئة فأصابتنى وجوم مفاجىء .. رفعت كأسى الفارغة فى صمت فانزلقت قطعة الثلج فى فمى .. رفعت يدى بلا شعور أشير للجرسون .. كنت قد بدأت أشعر أننى أفقد وعيى .. قلت « أريد كأسا أخرى » ..

قال « لا » ..

نهضت واقفا أنهره وأوقف تدخله .. قلت للجرسون « افعل كما أقول أنا » ..

قال « أنت حر » ..

مطت شفتى بلا اكتراث وجلست أكمل حديثى معها « بل أعرفك .. ماذا كنا نقول ؟ » ..

« أنت سكران » ..

« لا .. لا .. ولكن ذلك يبدو غريبا » ..

قالت « ما هو ؟ » ..

قلت « أننا معا .. أقصد نحن الثلاثة » ..

قالت « لا أفهم » ..

اقتربت منها .. أشرت اليها فاقتربت .. همست فى أذنها ..

« لماذا هو معنا ؟ .. لماذا لا يتركنا .. قولى له » ..

تراجعت فجأة .. نظرت الى طويلا .. أدارت وجهها تنظر نحوه ..

قالت « نحن أصدقاء .. أليس كذلك ؟ » ..

أشعل هو سيجارته .. هز عود الثقاب فى يده ثم نفخه .. أشرت اليه أن يعطينى سيجارة .. قلت « أشعلها من سيجارتك » .. هز رأسه موافقا .. كان يبدو فى نظرى عاقلا واثقا من نفسه متمالكا لوعيه ..

سددت عيناها فى عينى وسألت « أليس كذلك ؟ » ..

هززت رأسى « كنت أقصد أننا .. » ..

قالت تسكتنى « أنت سكران » .. وضحكت ..

مد يده يسحبنى كى أقوم « هيا بنا .. لابد أن تنام الآن .. أنت سكران » ..

سحبت يدى بشدة وأنا أهز رأسى بعنف محتجا والاحساس بالاهانة يفسد على متعة الخمر « دعنى ! » ..

كنت أحاول أن أنفى لنفسى تصورى أننى سكران بالفعل وان كنت قد بدأت أقتنع بأننى سكران تماما ..

حاولت أن أتماسك حتى لا أسقط أمامها .. استندت على ذراعه وفتحت عينى الثقيلتين ووقفت أنقل نظرى بينهما .. كان وجهه يبدو طويلا كوجه حمار فضحكت .. أما فمه فبدا واسعا كفم قناع الكوميديا فى حين رأيت عينيها حفرتين عميقتين بلا نهاية ..

قلت أتحداه « لا شأن لك بى » ..

راودنى احساس أننى لم أكن أستطيع أن أقول له شيئا كهذا فى وعيى .. توأريت خلف سكرى لأتحداه ..

واصلت بعد أن اكتشفت أننى أستطيع أن أقول فى وجهه كل ما أريد « لماذا لا تتركنا ؟ .. ما شأنك بنا ؟ » ..

دفعنى أمامه صامتا فمشيت رغم محاولاتى المتكررة للتوقف .. التفت للخلف أنظر اليه .. كان قد ثبت نظره أمامه كأنما لا يرانى .. حاولت أن أفتش فى ذاكرتى عن سبب يبرر خوفى منه الى هذا الحد .. كنت متأكدا أننى أسبقه فى الدراسة .. كانت كتبى وكراساتى كلها نظيفة مرتبة بلا أخطاء .. درجاتى كانت تفوق درجاته فى الاختبارات .. وعندما كان يستعير بعض كتبى كان يعيدها الى متسخة أو ممزقة فلا أقوى على الاحتجاج .. كان أقوى منى جسما لكن هذا — يبدو لى الآن — لم يكن سببا يكفى لخوفى منه ..

سرت أمامه مستسلما حتى خرجنا الى الشارع فأحسست بلذعة الهواء البارد .. وقفت انتظر خطوته التالية .. سمعت ضحكهما خلفى فالتفت نحوهما .. سحب ذراعه من فوق كتفها بسرعة مشيرا يوقف احدى سيارات الأجرة ..

سألتنى لماذا كنت أنظر اليهما هكذا .. تجاهلت سؤالها ووقفت انتظر وظهرى لهما واحساسى يتزايد بأنهما يتغامزان ويتهامسان عنى ..

أطرقت الى الأرض .. كان ظلهما يمتد بعرض الشـارع ويتسلق الحـائط المقابل فى حين كان ظلى يسقط تحت قدمى مباشرة ..

استدرت نحوهما فجأة وصحت « أريد أن أبول الآن .. هل هناك مانع ؟ » ..

كتمت ضحكتها فى حين هجم هو نحوى وراح يشـدنى بعيدا نحو الحـارة .. فكرت فيما هو يشدنى فى انه ربما كان أيضا يخشـانى والا ـ قلت لنفسى ـ لمـاذا سحب ذراعـه بسرعة من فوق كتفها عندما استدرت نحوهما ؟ !

استرحت للفكرة وعدت معه انتظر التاكسى ..

....

....

أطفأت النور .. وانحنيت فى الظلام أدخل رأسى تحت الصنبور مستريحا للمـاء المندفع يغرق رأسى ووجهى وينزلق باردا منسابا فوق ظهرى .. بينما راحت بعض الدموع الدافئة تنساب مختلطة بالمـاء المتساقط من وجهى ..

لم يحدث شيء !

مضيت معها أهبط الطريق المفضى الى الميدان .. أمـام شريط الترام توقفنا .. انحنت تلتقط كفى فى يدها .. تلفتت حولها فى صبر مستسلم .. جذبتنى من ذراعى فأسرعنا نعبر الشريط ركضا تتفادى السيارات المسرعة تهدر حولنا من كل اتجـاه ..

بحذاء السور العالى الذى راح طلاؤه يتساقط من بعض أجزائه سرنا وشمس الصباح تتحسس بقايا اللافتات والأسماء والألوان فوق الحـائط وتمتد لتدخل كل شق فيه .. تمنيت

فى تلك اللحظة لو أننى أقف فى مواجهـة الشمس .. أعطى وجهى للنور وأغمض عينى أمامها استشعر دفئهـا وأحلم .. وأرى خلف جفنى ألوان الطيف تدور .. تتشابك وتتقاطع فى نعومة لا تتوقف ..

عند نهاية السور انحرفنا يسارا فانكشفت أمامنا الجبانات وأحواش المدافن ومن خلفهـا كان الجبل يربض سـاكنا أغبر اللون كئيبا ..

سرت معها ساكنا بين بعض البيوت القديمة حتى توقفت أمام أحد الأبواب فتوقفت .. تركت كفى فأحسست بالارتياح من ضغط أصابعها حول أصـابعى وملمس العرق فى راحـة يدها .. دست يدها فى صـدرها بينما رحت أنا أدور حولها وأقفز فوق ساق واحدة ..

أخرجت من صدرها عملة فضية قلبتها على وجهها أمام عينيها .. رفعتها أمامها تشير بها نحو قرص الشمس « اذا مالت الشمس وغطى ظل الجامع الشارع تعود .. فهمت ؟ » .. هززت رأسى موافقا ..

مدت يدها بقطعـة العملة نحوى فأسرعت التقطها منهـا وانطلقت أعدو ..

عند بداية السور توقفت •• استدرت أنظر اليها قبل أن يبتلعنى الشارع الكبير ••

كانت تقف مستندة بظهرها الى الباب الخشبى بينما راحت عيناها تتابعانى ••

درت مع السور ثم عدت أنظر •• كانت قد استدارت وراحت تنقر بأصابعها الطويلة خشب الباب ••

•••••••••

•••••••••

قبل أن تميل الشمس كنت أجلس أمام البيت القديم فوق أحد الجدران المتهدمة أقذف قطعة العملة فى عين الشمس الغاربة والتقطها متابعا فى اهتمام ارتفاع وسقوط ذلك القرص المعدنى اللامع أمام الضوء الأصفر الضارب الى الاحمرار عندما انفلت فى احدى المرات من بين أصابعى مرتطما بالحجر ••

حددت أذنى مكان السقوط •• انحنيت افتش بين شقوق الحجر عن القطعة الفضية اللامعة ••

كانت عيناى ما تزالان تبربشان من أثر ضوء الشمس لكننى لم أيأس ورحت أتحسس الأرض بأصابعى اتلمس التراب والحصى حتى ضقت فى النهاية باللعبة كلها فنهضت

ساخطا أركل الحجر بقدمى وأبصق عليه قبل أن أجلس فوقه واضعا رأسى بين كفى بينمـا عيناى لا تفارقان نافـذة البيت منتظرا رؤيتها فى أى لحظة ..

كان قرص الشمس قد اختفى خلف البيوت وانتشر الظلام فاضيئت النافذة .. توقعت أن أراها لكنها لم تظهر .. هبت نسـمة من الهواء البـارد فاهتز كل جسمى لكننى لم أبرح مكانى ..

أضيئت مصابيح الشـارع البعيـد بعد فترة فأحسست بالخوف يدب داخلى وساورتنى رغبة فى البكاء شعرت معهـا أننى اكرههـا وأتمنى أن تموت لو عادت لتركى وحيـدا مرة أخرى ورحت فى خيالى أتصـور عفاريت الجبانات تمرح بين المقابر متخذة أشكال الأرانب البيضاء التى تلعب فى ضـوء القمر وتفقز فتقفز معها ظلالها السوداء الصغيرة فأزداد انكماشا لاكتشف أننى كنت أبكى منذ فترة ..

انفتح باب البيت ولمحت طيفها فى فتحة الباب ومن خلفها خيال لرجل يضـع كفه حول رقبتها .. مال نحوها .. خرجت وأغلقت الباب من خلفها .. أسرعت أقفز من فوق الجـدار أركض نحوها ملقيا ذراعى حول خاصرتها أتشبث بها ..

مدت يدها ترفع وجهى نحوها ..

رفعت ذراعى اليها فمالت تحملنى ..

أخرجت منديلها تمسح دموعى وضمتنى الى صـدرها .. لاحظت جرحا جديدا فى رقبتها .. ملت للوراء أنظر فى عينيها فنظرت بعيدا .. التفت مشيرا صوب البيت وصرخت « أذهب لأضربه ذلك الرجـل الذى يضربك » رفعت ذراعيهـا عنى وجاهدت لأهبط معتزما الانطلاق نحو البيت لكنها شـددت احتضانى ..

ابتسمت لى مشجعة ثم هزت رأسها ضاحكة من خلال دموعهـا التى بدأت تلمع فى عينيهـا تحت ومضات الضـوء البعيد ..

ضمتنى الى صـدرها بشدة وراحت تردد « لم يحدث شىء .. لم يحدث شىء !! » ..

الفهــرس

رقم الايداع ١٩٩٢/٤٣٣٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3044 —3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب